عبد القادر الفاسي الفهري

المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي

دار توبقال للنشر

عمارة معهد التسيير التطبيقي
ساحة محطة القطار - بلفدير - الدار البيضاء.
المغرب - الهاتف والفاكس :60.05.48

تم نشر هذا الكتاب ضمن سلسلة
المعرفة اللسانية ـ أبحاث ونماذج
بإشراف د. عبد القادر الفاسي الفهري

الطبعة الأولى 1998

الإيداع القانوني رقم 1998/692
ردمك 9981-880-50-7

الفصل الرابع

الظروف وسَلْسَلَتُهَا*

* قدم عرض عن هذا البحث ضمن مناظرات معهد الدراسات والأبحاث للتعريـــب في دجنـــبر 1996، وكذلك في المؤتمر الحادي عشر للسانيات العربية بأطلنطا (جامعة إمـــري Emory Univ., Atlanta). وقد ظهرت صيغة إنجليزية منه في *أبحاث لسانية*، مج 2، عدد 1، في أبريل 1997.

إذا كانت الأدبيات التوليدية حول الظروف في اللغات الأخرى متوافـــرة (وخاصة بالنسبة للغات الجرمانية والرومانية)، فإن الـــتراكيب الظرفيـــة في اللغـــة العربية لم تحظ بأي وصف حديث، ولو أولي. وســـأحاول في هـــذا الفصل سدّ جزء من هذه الثغرة بتفحص الخصائـــص التركيبية للظـــروف، بما في ذلك: (أ) توزيعها و(ب) تأويلها (أو تحديد حيزها scope) وكذلك (ج) إعرابها. وسأضَمّنُ في هذا الباب ثلاثة مفاهيم غربية متقاربة هـــي: adverb و adverbial و circumstant، بالإضافة إلى لفظ "ظرف" العربي، الذي لـــه دلالـــة خاصة. فما يدخل في طبقة adverbs في الإنجليزية والفرنسية، مثلا، هـــو أولا كلمات لها لاصقة خاصة مثل ly في friendly "بوُدّ" أو quickly "بســـرعة"، أو ment في gentiment أو rapidement. ثم هناك ظروف ليس لها علامـــات مثـــل often "غالبا" وalways "دائما"، و souvent و toujours. وهناك مـــا يدعـــى ب adverbials أو"الظرفيات" مثل yesterday أو that day، أو ce soir، الخ، التي تعالج عادة على أساس أنها أسمـــاء. وهنـــاك circumtancials مثـــل" بالمســـدس" أو باستمرار"، الخ (التي سأعود إليها في الفصل). وأما الظرف بـــالمعنى العـــربي الضيق، فهو محدود في المفعول فيه، أي ما أفاد مركبا حرفيا دلّ على زمان، أو

مضمن فيه معنى الحرف "في". إلا أننا نريد أن نتوسع في الاصطلاح ليغطي مجموعة أوسع، هي ما يغطي لفظ adverb وكذلك adverbial.

وفي إطار البرنامج الأدنى الذي اقترحه شومسكي (1993، 1995)، تلعب السمات الصرفية-التركيبية الموجودة في الرؤوس المعجمية المُصَرَّفَة تصريفا تاما وفي الرؤوس الوظيفية دور تسويغ الإسقاطات وتوزيع الموضوعات والمركبات، وخصوصا في المُخَصِّصات. وهناك ميكانزم لفحص السمات (feature checking) يمكن من التأكد من أن الرؤوس أوالموضوعات توجد في علائق شجرية لائقة. ويعتبر النقل بمثابة "آخر ملاذ" (last resort) يمكن من توليد بنية سليمة. وتعد الظروف عند شومسكي ملحقات (adjuncts)، لا مخصصات، وهي بهذا لا تدخل في علائق الفحص (المحدودة في الرأس والمخصص). إلا أن هناك عددا من الأبحاث اقترحت أن تكون الظروف خاضعة للفحص.[1] فَشِنكوي (1995، 1997) يفترض أن الظروف مخصصات لرؤوس زمنية أو جهيَّة أو مُوَجِّهيَّة. فإذا كان الأمر كذلك، فإن هذا الافتراض يمكن من رَصَد خصائصها التوزيعية والتأويلية، كما سأبين. وأما فيما يخص إعراب الظروف، فإن معالجته الكافية تضطرنا إلى إعادة النظر في نظرية شومسكي الإعرابية.[2]

---

[1] انظر تريفس (1988) Travis، شنكوي (1995، 1997) Cinque وليزنجر (1996) Laezinger من بين آخرين.

[2] تمتد مقاييس (Criteria) ريتزي (1991 و1995) إلى وظائف الخطاب أو القوة الإنجازية (illocutionary force)، مثل الموضع (topic)، والبؤرة (focus)، والاستفهام والأسوار والظروف. إلا أن الظروف لا تختلف هنا عن الموضوعات في كون السمات المستهدفة خطابية، وليست نحوية.

1. الظروف في اللغة العربية وإشكالاتها

المركبات التي تقابل (أو تترجم) ما يدعى ب adverbs في الإنجليزية تأتي في العربية في صورة صفات منصوبة، أو أسماء منصوبة، أو مركبات حرفية، كما في الأمثلة التالية:

(1) أعرف الجواب *جيدا*

(2) أ) نسي الرجل ربه *تماما*

ب) أكل التفاحة *البارحة*

(3) أكل التفاحة بسرعة

فهذه المركبات تبدو وكأنها لا تتسم بخصائص تركيبية وصرفية متفردة، تجعل منها مقولة متميزة. وحتى في اللغات التي يكون فيها للظرف علامات مميزة، مثل ما نجده في الإنجليزية أو الفرنسية التي قد يكون للظرف فيها لاصقة تميزه (كما في completely وcomplètement "تماما")، فإن اللغويين قد درجوا على افتراض أنه ليس هناك مقولة ظرفية، بالمعنى الدقيق، بل إن هناك فقط مقولات اسمية أو صِفِيَّة أو حرفية تستعمل كظروف.

ورغم كون هذه المقاربة الوظيفية لمشكل الظرف تبدو صحيحة، إلا أننا بحاجة، مع ذلك، إلى تحديد (أ) النواة الوظيفية لخصائص الظروف و(ب) الخصائص التركيبية والصرفية التي تظهر في الظروف (وتمكن من اشتقاقها وتسويغها). وسأركز، بصفة خاصة، على منقولية الظروف (transportability) وتوزيعاتها، وترتيبها الهرمي في البنية، وحيزها أو تأويلها، وكذلك إعرابها. وبعد التعرف على هذه الخصائص، سيتبين كيف أن الظروف تختلف عن الظرفيات (circumstants) الممثل لها بواسطة ظرفي المعية وظرفي الآلة في المثال (4):

(4) أكل الرجل الطعام مع صديقه بالأصابع

2. مواقعها وتوزيعاتها

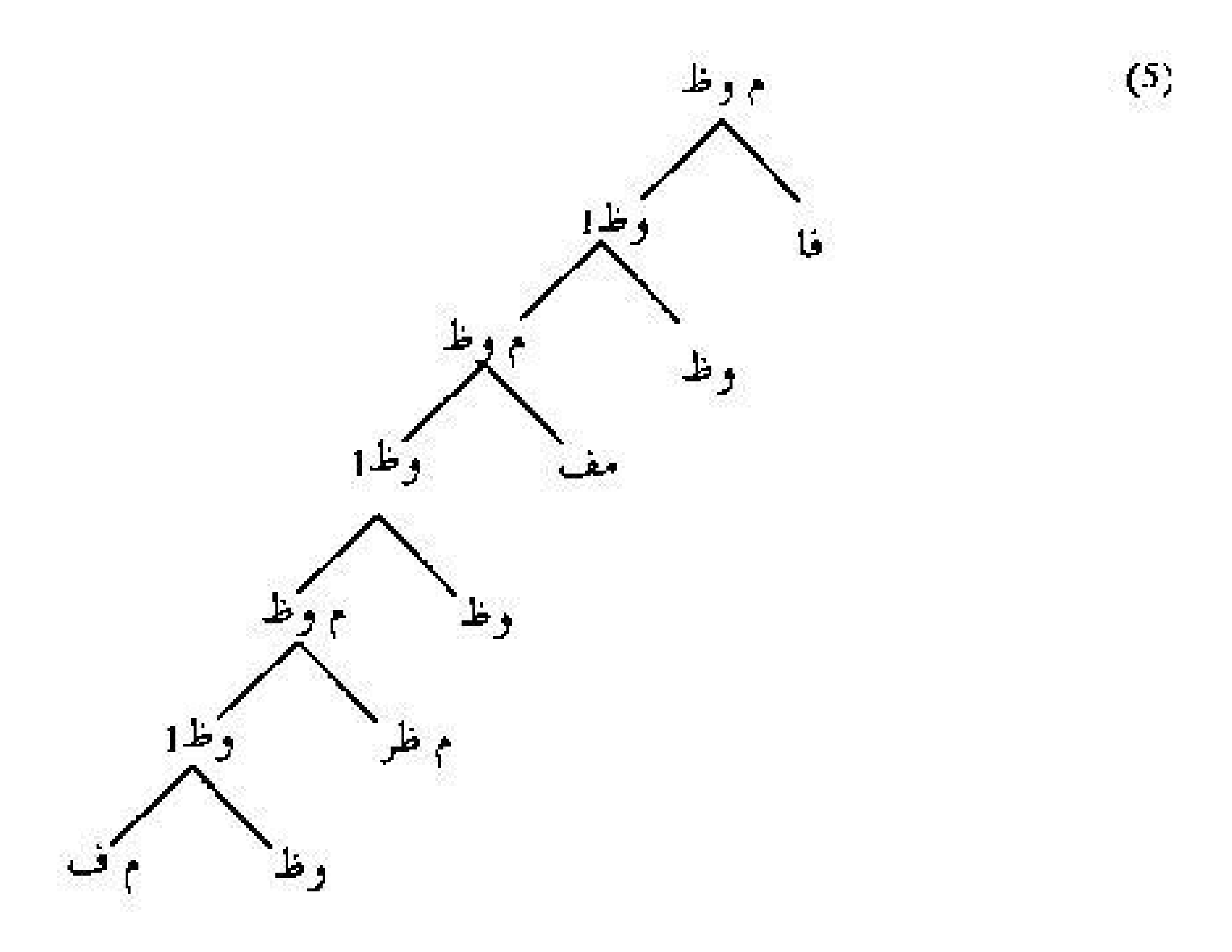
2. 1. الظروف في آخر الجملة

جل الظروف يمكن أن تظهر في آخر الجملة (بعد الفعل والفاعل والمفعول)، كما هو واضح في الأمثلة (1) إلى (3). فإذا كان الفاعل والمفعول مكونين داخل المركب الفعلي، وكانت الظروف ملحقة ب م.ف.، فإن تموقع الظروف في آخر الجملة قد يكون مؤشرا على أن جميع المكونات في م.ف. قد تنقلت إلى إسقاطات أعلى من م. ف. (انظر بولوك Pollock (1989) وبوبلجيك Bobaljik (1996)، من بين آخرين). وأما إذا كان الفاعل والمفعول غير مولدين في م.ف.، بل في مخصصات لإسقاطات جهية، كما في بورر Borer (1994) والفاسي (1995، 1996)، فإن الظروف التي تكون في آخر المركب الفعلي يتم توليدها، بدون شك، في مخصصات إسقاطات جهية دنيا، بمجاورة أو قريبة من الفعل (انظر لارسن Larson (1988) وسترويك Stroik (1996))، وهي تظل في مكانها إلى يسار الفعل، الذي ينتقل إلى أعلى، فتظهر وكأنها إلى يمينه.

لنفترض أن الظروف نعوت للأحداث، وأنها تولد كمخصصات لإسقاطات وظيفية (تنتمي إلى مجال فحص الفعل).[3] إذن الموقع الأخير الذي تحتله يمكن أن يكون في نفس الوقت الموقع الذي تُؤَوَّلُ فيه (وتُسَوَّغ جهيًّا)، وكذلك الموقع الذي تتلقى فيه الإعراب. سأفترض بنية مثل (5)، يوجد فيها الفاعل والمفعول في مكانين أعلى من مكان الظرف، وإن كانت الفضلات الأخرى توجد داخل المركب الفعلي:

[3] انظر عن هذا التصور شنكوي (ن.م.)

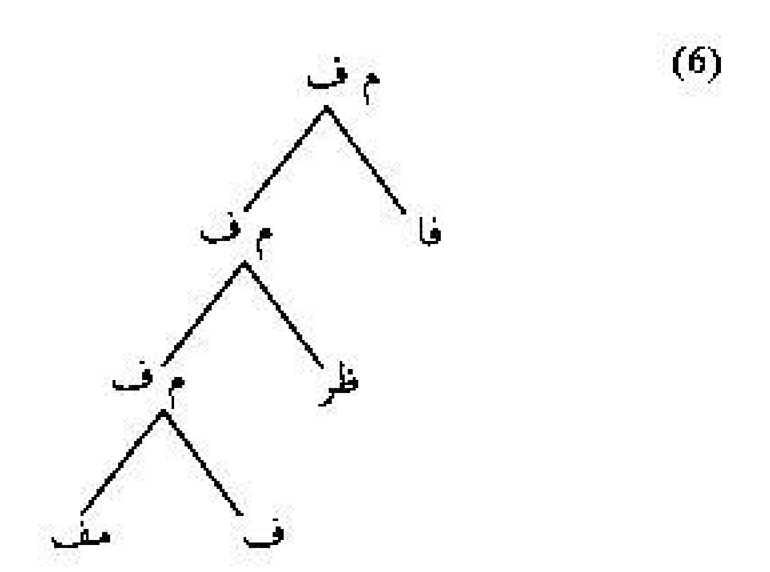
(5)



والبنية في (6) تمثل التشجير المعهود لموقعة الظروف، على أساس أنها ملحقات لم. ف:[4]

[4] وظ: وظيفي، م: مركب، ظر: ظرفي، فا: فاعل، مف: مفعول.

(6)



2.2. المنقولية

رغم كون الظروف تشترك في إمكان ورودها في آخر الجملة، فإنها تختلف بحسب المواقع التي يمكن أن تنتقل إليها، أو تتموقع فيها. لِنُسَمِّ هذه الخاصية "المنقولية" (transportability). منقولية الظروف تتحكم فيها أُنْطُولُوجيّة المقولات الوظيفية التي يمكن أن تلحق بها، أو تكون مخصصات لها (مثل الجهة والزمن والموجِّه والقوة الإنجازية، الخ). فهذه الخصائص الأنطلوجية تمكننا من التفريق بين طبقات توزيعية مختلفة للظروف، ننتقي منها ثلاث طبقات أساسية.

فالطبقة الأولى (= طب1) تشمل الظروف التي يمكن أن تقع قبل (أو أعلى مِنْ) المفعول، أو المركب الحرفي الفضلة، كما في المثالين التاليين:

(7) أ) أعرف *جيدا* الجواب

ب) ألتقي *غالبا* بالرجل

فهذه الظروف لا يمكن أن تصعد إلى موقع أعلى في البنية (إلى رَبْض المركب الصرفي الجملي، أو إلى بداية الجملة) كما تبين ذلك الأحكام النحوية التالية:

(8) أ)* كان الرجل جيدا يعرف الجواب
ب)* جيدا يعرف الرجل الجواب

وهناك طبقة ثانية من الظروف (= طب2) يمكن أن تتموقع في مكان أعلى من المركب الصُّرْفي الجملي المدمج، أو من المركب المُوَجِّهي (Modal Phrase)، كما في المثال التالي:
(9) لم يكن الرجل *قبلُ* قد أكل التفاحة
فهنا نجد أن الظرف *قبل* يتقدم على الحرف الموجهي *قد*، الذي يتقدم بدوره على إسقاط فعلي متصرف.[5]

وهناك طبقة ثالثة (= طب3) من الظروف يمكن أن تسبق النفي، أو تظهر في بداية الجملة كما في المثال التالي:
(10) *طبعا* لم يأكل الرجل التفاح
(11) *غالبا ما* يأكل الرجل التفاح
ففي هذه السياقات، أفترض أن الظرف يوجد في مخصص رأس وظيفي قد اجتُذِبَ الفعل إليه. فظروف طب2 تتموقع في مخصص الموجِّه، مثلا، وتتلقى في هذا الموقع تأويلها (الموجهي) وكذلك إعرابها. وظروف طب3 تنتمي إلى مجال المركب المصدري (complementizer phrase = CP)، أو إلى مواقع القوة الإنجازية التي تُسَوَّغُ في الربض الأيمن للجملة، كما اقترح ذلك ريدزي (ن.م.). وظروف طب1 التي تتموقع قبل المركب الحدي المفعول أو قبل الفضلة لها حيز (scope) مخالف لتلك التي تكون في مكان بعد الفعل. ويبدو أن أبسط صورة لما دعي بالمنقولية ترصد عن طريق افتراض أن هناك توليدا أوليا متعددا لنفس الظرف في مخصصات إسقاطات وظيفية متعددة، بحسب التأويل، وإن كنا نحتاج إلى تدقيق الصورة، بإدخال النبر والتبئير والاعتراض في الاعتبار.

---

[5] لتحليل تراكيب من هذا النوع، انظر الفاسي (1991-1993).

3.2. *الترتيب الهرمي*

تتموقع الظروف في تسلسل وترتيب هرمي هو: طب3 > طب2 > طب1. وهذه بعض الأمثلة:

(12) *طبعا* لم يكن الرجل *أبدا* يأكل *كثيرا*

(13)**كثيرا* لم يكن الرجل *أبدا* يأكل *طبعا*

(14)**أبدا* لم يكن الرجل *طبعا* يأكل *كثيرا*

ففي هذا الترتيب الذي يبدو ثابتا، تتقدم الظروف الموجهة نحو المتكلم (speaker oriented) على الظروف الموجهة نحو الفاعل (subject oriented)، وهذه الأخيرة تتقدم بدورها على ظروف الكيف (manner)، الخ. وهذا التسلسل يبدو محكوما بسلمية كلية (universal hierarchy) للوظائف النحوية.[6] فالسمات الوظيفية تتفاعل مع السمات الخطابية لتحديد تأويل الظروف (وأحيازها)، وكذلك موقعها. وتقدم التراكيب التالية مزيدا من الأمثلة لهذه الهرمية الموقعية:

(15) *طبعا* أكل الرجل *عمدا* التفاحة *تماما*

(16) *طبعا* لم يأكل الرجل *أبدا* *عمدا* التفاحة *تماما*

---

[6] يفترض شنكوي (1995) أن السلمية التالية للظروف كلية:

(أ) الزمن الأول > الموجه المعرفي (epistemic) > الوجه (الواقعي وغير الواقعي realis/irrealis mood) > الموجّه الجذر (root modality) > (النفي) > الزمن الثاني> جهة (مُنْهَاة / غير منهاة perfect/ imperfect) > جهة (تَدَرُّجية / جنسية progressive/generic) > جهة (هادفة / غير هادفة telic/atelic)> جهة (تمام/غير تمام perfective/imperfective) > بناء (معلوم / غير معلوم)

ويمثل لهذه السلمية بترتيب الظروف في الإيطالية:

(ب) ora "الآن" > fortunamente "لحسن الحظ" > probabilmente "احتمالا" > abilmente "بمهارة" > mica "نفي" > gia "قبل الآن" > piu "بعد" > sempre "دائما" > completamente "تماما" > tutto "كل" > bene "جيدا".

4.2. الظروف الدنيا

لننظر الآن فيما يدعى في الأدبيات بـ"الظروف الدنيا" (lower adverbs)، وكذلك ترتيبها وتسلسلها. فهذه بعض الأمثلة:[7]

(17) أ) فسر الرجل حقيقة (*تماما*) كل شيء *جيدا*

ب)* فسر الرجل *جيدا* كل شيء *حقيقة*

(18) أ) الرجل يأكل *دائما* الدجاجة *تماما*

ب)* الرجل يأكل *تماما* الدجاجة *دائما*

(19) أ) لم يعد الرجل *بعد* ينتصر *دائما*

ب)* لم يعد الرجل *دائما* ينتصر *بعد*

(20) أ) ينتبه الرجل *عموما* إلى سقطاته *دائما*

ب) ينتبه الرجل *دائما* إلى سقطاته *عموما*

فهذه الحدوس (ج. "حدس") تبين أن هناك ترتيبا شبه صارم للظرفيات التي تنعت بالدنيا، يخضع للسلمية التالية:[8]

(21) عموما > بعد (قط) > دائما > حقيقة > تماما > جيدا

5.2. الظروف "العليا"

لاحظ دجاكندوف Jackendoff (1972) أن الظروف المُوَجَّهَة نحو المتكلم تسبق الظروف الموجهة نحو الفاعل. إلا أن الظروف الأولى قد صنفت إلى ظروف مجال (domain) أو إطار (frame) مثل "سياسيا" و"قانونيا"، وظروف

---

[7] هذه الأحكام شخصية، ولم أجد في الأدبيات التقليدية ما يؤكدها أو يبطلها. ومعلوم أن هذه الأحكام تنطبق فقط مع النبر"العادي"، لأن النبر بالتبئير مثلا، قد يغيرها، ولكن هذا غير مهم بالنسبة لما نحن بصدده.

[8] يقترح شنكوي (1995) السلمية التالية بالنسبة للفرنسية:

(i) généralement > pas > déjà > plus > toujours> complètement (vraiment) > tout > bien

ذريعية (pragmatic) مثل "صراحة" و"بكل نزاهة"، وظروف تقييمية (evaluative) مثل "لحسن الحظ" (happily)، وموجهية مثل "تأكيدا" و"ضرورة"، بالإضافة إلى (perhaps) "ربما" (انظر بليرت Bellert (1977) وشنكوي (1997)).

ورغم أن ترتيب هذه الظروف لا يبدو ثابتا، فإن الظروف/الإطار تتقدم عادة على ظروف وقت التلفظ (speech time)، التي تتقدم بدورها على الظروف الموجهية والظروف الموجهة نحو الفاعل. وهذه الظروف كلها تسبق الظروف الدنيا، ومن هنا نعتها بالعليا (higher). وهذه بعض الأمثلة:

(22) *صراحة الآن* ربما انتهى كل شيء

(23) *سياسيا الآن* ربما انتهى كل شيء

(24) *احتمالا دون شك* يُضْرِب العمال *غدا*

فهذا الترتيب يبدو خاضعا للتسلسل التالي:[9]

(25) صراحة > طبعا > دون شك (احتمالا)، تأكيدا > الآن (غدا) > ربما > عمدا، قصدا

[9] أضع هنا جانبا المركبات الحرفية، التي يمكن أن تقع مكان الصفات أو الأسماء المنصوبة. نجد في شنكوي (1995) هذا التسلسل بالنسبة للفرنسية:

franchement > heureusement > (évidemment) > probablement > maintenant > peut-être > (أ) intelligemment

3. الحيز والتأويل

1.3. تغيير الحيز

يلاحظ دجاكندوف (ن.م.) أن طبقته الأولى للظروف يمكن أن تحتل مواقع متغايرة داخل الجملة، تواكبها تأويلات مختلفة. ويتبين هذا الاختلاف في تأويل الظرف في الأمثلة التالية:

(26) John has answered their questions *cleverly*

(27) John *cleverly* has answered their questions

(28) John has *cleverly* answered their questions

"أجاب دجون عن أسئلتهم بذكاء" (مع تغيير موقع "بذكاء").
فتأويل (26) هو أن الكيفية التي أجاب بها دجون ذكية، في حين أن تأويل (27) هو أن دجون كان ذكيا عندما أجاب عن أسئلتهم. وأما (28)، فتعني أن الأجوبة كانت ذكية. إلا أن المقابلات العربية لهذه التراكيب لا تقبل الالتباس: فالظرف إما أن يكون للكيف، أو مُوَجَّهًا نحو الفاعل، ولكنه لا يحتمل القراءتين معا. وعلاوة على ذلك، فإن ظروف الكيف يعبر عنها عادة بمركبات حرفية (تدخل عليها الباء)، ولكن الظروف الموجهة نحو الفاعل لا تكون مركبات حرفية، كما يظهر من التقابل التالي:

(29) أ) أجاب الرجل بلادةً عن أسئلتهم *بذكاء*

ب)* أجاب الرجل *ببلادة* (بلادةً) عن أسئلتهم *ذكاءً*

فتأويل (29 أ) هو أن الرجل كان بليدا حين أجاب عن أسئلتهم بذكاء، بينما (29 ب) لا تقبل هذه القراءة، لأن الظرف الموجه نحو الفاعل لا يكون مركبا حرفيا، والظرف الاسمي المنصوب لا يكون ظرف كيف في هذه الحالة.[10]

---

[10] قد تكون جمل مثل (أ) مقبولة، ولكن تأويلها ليس هو الكيف، بل التوجه نحو الفاعل:

(أ) أجاب الرجل عن أسئلتهم بلادةً

والمقصود هو: "بلادة منه"، فالحرف مقدر.

فالظرف "نفسه" لا يمكن أن يختلف بين تأويل الكيف وتأويل التوجه نحو الفاعل. إلا أن الظرف "نفسه" يمكن أن يكون له تأويل مختلف، بحسب حيزه. ففي المثالين التاليين:

(30) نسي التعاليم *تماما*

(31) نسي *تماما* التعاليم

نجد أن الجملة (30) تفيد أنه نسي كل شيء من كل تعليمة (أو تفاصيلها)، بينما قد تفيد الجملة (31) أنه لم يتذكر أنه مرتبط بتعاليم في الوقت المناسب.[11]

2.3. *الظرفيات* (circumstants)

الفضلات الظرفية توجد عادة في آخر المركب الفعلي، في صورة مركبات حرفية. وهي لا تخضع لرتبة قارة أوهرمية، ويمكن أن تتبادل الأحياز، وتقع في حيز بعضها البعض. وهذا ما نجده ممثلا في التراكيب التالية:

(32) أ) الرجل يأكل الدجاج على العموم باستمرار

ب) الرجل يأكل الدجاج باستمرار على العموم

(33) أ) يكون الرجل عموما دائما على صواب

ب) ؟؟ يكون الرجل دائما عموما على صواب

فبخلاف الظرف الذي لا يقبل تغيير الرتب المعهودة بسهولة، كما يتبين من مقارنة (33أ) و(33ب)، فإن المركبات الحرفية الظرفية لا تكون لها رتبة محفوظة. وهذه الظرفيات (التي تشمل المكان والزمن والكيف والمعية والعلة

[11] رغم أن التغير في التأويل أو الحيز يبدو مرتبطا بالرتبة، وأن سلمية الظروف مراعاة ، يمكن مع ذلك البحث عن حالات تبدو فيها الرتبة مغايرة أو مُعَلَّلَةً، مما يعني أن هذه الظروف لا تقع في مواقع توجد فيها في أصل البنية. والذي يدل على البنية الأصلية هو: (أ) إمكان إعادة البناء لتحديد الحيز الفعلي (scope under reconstruction)، و(ب) خصائص التفريع المقولي (subcategorisation). انظر شنكوي (1997).

والقصد، الخ) تتبع فضلات الفعل (الموجودة في المركب الفعلي)، وتختلف عن الظروف في الخصائص التالية (انظر شنكوي (1997)):
(أ) ليست مرتبة ترتيبا صارما فيما بينها (انظر شومسكي (1995))
(ب) تتبادل الأحياز
(ج) توجد محققة عادة في شكل مركبات حرفية (أو نادرا في شكل اسم منصوب)
(د) لا تظهر في أي موقع قبل الفعل من المواقع التي تظهر فيها عادة الظروف
(ه) تبدو مخالفة للظروف من الناحية الدلالية، لأنها نعوت منسوبة إلى متغير حدث، وليست عوامل (operators)، تحول قضايا إلى قضايا، أو حمول إلى حمول.[12]

4. الإعراب

يظهر الإعراب على الظروف في صورة النصب، وهو إعراب يظهر على الفضلات الحملية (كما في (34))، والمفعولات المطلقة (كما في (35))،

---

[12] يورد شنكوي (ن.م.) المثالين التاليين ليبين أن التأويل والحيز يمكن تغييرهما بدون مشكل بالنسبة للظرفيات:

(أ) He attended classes in each university with a different friend

"حضر الدروس في كل جامعة مع صديق مختلف"

(ب) He attended classes with each friend in a different university

"حضر الدروس مع كل صديق في جامعة مغايرة"

ويقترح شنكوي أن تكون العلة وراء هذا الترتيب "الحر" هو أن الظرفيات ليست موجودة في مخصصات الإسقاطات الوظيفية، بل في بنية مركبية "مقوقعة" (xp shell structure). وكما يلاحظ شومسكي (1995)، فإذا كانت البنية المقوقعة واردة، فيمكن توليد المركبات الزائدة في المركب الفعلي بربطها برؤوس فعلية فارغة تكون تحت الفعل الرئيسي.

والتمييز (كما في (36))، والحال الذي يمثل حملا ثانيا (secondary predicate)، كما في (37)):

(34) كان الرجل مسرورا

(35) ضرب الرجل الولد ضربا شديدا

(36) طاب الرجل نفسا

(37) خرج الرجل مسرورا

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإعراب في هذه الحالات يختلف عن إعراب الحمول غير المعمول فيها في الجمل الاسمية، والتي تكون مرفوعة ضرورة:

(38) الرجل مسرور

وسأبين أن إعراب الظروف بنيوي، ولا يمكن اعتباره معجميا أو ملازما.[13] وسأبحث بعد ذلك في الآلية المسؤولة عن إسناد هذا الإعراب أو فحصه.

1.4. إعراب معجمي أم ملازم؟

يقدم لارسن (1985) تفسيرا إعرابيا لكون بعض الأسماء الظرفية سليمة التكوين، والبعض الآخر ليس كذلك. فهو يشير إلى أن الظروف تُؤوَّل عبر

[13] لاحظ أن الحمول الاسمية والنعوت والظروف والملحقات كلها تتلقى إعرابا، وتبدو خاضعة للمصفاة الإعرابية (مثل أي مركب اسمي). وعليه، فإننا لا نستطيع التفريق بين الحمول والموضوعات على أساس أن الموضوعات وحدها تملك قدرة تلقي الإعراب (كما اقترح ذلك سافير (1987) Safir وسترويك (1996) (Stroik). ورغم أنني أتفق مع هذا الأخير في أن الفرق في سلامة التكوين بين الظروف الاسمية الزمنية وظروف المكان (علاوة على الفرق في الإنتاجية) لا يمكن أن يعالج على أساس فرق إعرابي صريح بينهما (بواسطة وسم إعرابي معجمي، على طريقة لارسن (1985) (Larson)، بل إن هذا الفرق يرجع إلى قدرة بعض الأسماء على أن توظف كنعوت أو حمول، فإن دور النظرية الإعرابية في تسويغ هذه المركبات الاسمية لا يمكن أن ينكر.

إسناد دور محوري ظرفي، وهذا الإسناد يمكن أن يَعُمَّ أي مركب. وبعد أن لاحظ أن الظروف الاسمية لا تكون محاذية لأي عامل محتمل للإعراب (كالفعل والحرف مثلا)، يفترض أن الإنتاجية المحدودة لبعض الظروف يمكن أن تكون ناتجة عن كونها يجب أن تحمل إعرابا، مع أن ملحقات اسمية محدودة العدد تتمكن من تلقي إعراب بطرق خاصة، وتلافي المصفاة الإعرابية. ونظرا إلى أن الظروف الاسمية تتضمن اسم جنس من طبقة خاصة، فقد اقترح أن يكون إسناد الإعراب لهذه الأسماء ملازما، أي مسندا إلى هذه الأسماء معجميا، عبر سمة خاصة هي[+ وظ] (وظيفة)، تحملها هذه الأسماء.

إلا أن هناك ما يدعو إلى التشكيك في كون الإعراب الذي تتلقاه المركبات العربية غير الموضوعة إعراب معجمي (و/أو ملازم). فإسناد هذا الإعراب، أولا، جد منتج، ولا يمكن حصره في طبقة اسمية تحدد معجميا. وهذا الإعراب لا يمكن اعتباره غير موسوم (unmarked)، كما اقترح ذلك لارسن، وإلا فكيف نفسر كونه نصب؟ ثم إن إعراب الظرفي نفسه ليس دائما هو النصب، بل يمكن أن يكون الرفع أو الجر كما تبين ذلك التناوبات الإعرابية التالية:

(39) الرجل مسرور *جدا*

(40) الرجل جد مسرور

(41) اللقاء *غدا* مناسب

(42) لقاء *غدٍ* مناسب

(43) اللقاء *غدا* صباحا

(44) اللقاء *صباح غدٍ*

(45) اللقاء *كل صباح*

(46) اللقاء *ثالث يوم*

فتنوع المقولات الحدية السابقة للظرف، والتي تتلقى إعراب النصب، يبين بوضوح أن هذا الإعراب ليس معجميا، بل لا يسند إلى الظرف نفسه، وإنما إلى أي حد يتقدم على الظرف.

ولننظر الآن في فكرة أن هذا الإعراب ملازم (inherent)، أي مسند في البنية العميقة بموجب علاقة محورية (كما في شومسكي (1986)).[14] فإذا صح أن نفرق بين نوعين من الإعراب على أساس التفريق بين مستويين تمثيليين تركيبيين (هما البنية العميقة والبنية السطحية)، فإن إعراب الظرف يفرز خصائص مختلفة عن خصائص الإعراب الملازم.[15] فالظرفيات في (40)، (42)، (44)، و(45) تتلقى إعرابا بنيويا محضا، دون أن يتغير معناها الظرفي. ثم إن التناوبات بين النصب والجر في هذه التراكيب مؤشر على أن الإعراب بنيوي.[16] وكما سأبين، فإن من الأفضل أن نتعامل مع إعراب الظرف على أساس أنه إعراب بنيوي.[17]

---

[14] الحروف والأسماء والصفات مُسْنِدات للإعراب الملازم في شومسكي (ن.م.). وإذا ماشينا لارسن (ن.م.)، فإن الظروف تتلقى أدوارا محورية (بصفة حرة)، وإعرابها يقترن بهذا الوسم المحوري. وفي بتر وهيل (1996) Bittner and Hale، يسند الإعراب الملازم للمركبات في البنية العميقة، وهو مسوغ عن طريق مبدأ الإسقاط (Projection Principle) ومبدأ الانتقاء (Principle of Selection).

[15] هناك بالفعل ما يشكك في وجود هذين المستويين التمثيليين إذا ماشينا شومسكي (1995 ب). وعلاوة على هذا، فقد بينت في الفاسي (1990، 1991/1993) أن الإعراب الذي يسنده الاسم أو تسنده الصفة غير ملازم.

[16] هناك ظروف لها إعراب معجمي لا يتغير، يقول عنها القدماء إنها مبنية، مثل: *قبلُ وأمسِ وقطُّ*، الخ.

[17] يمكن افتراض وجود حرف "خفي" في جل الظروف الاسمية، يؤول الظرف على أساسه، مثل "في" في قولنا "صباحا" أو "مكان الحادث"، أو اللام في "طلبا للعلم"، أو الكاف في "مساهمة في العمل"، الخ. وتفترض ديشين وطرنبلي (1996) Déchaine and Tremblay أن الظروف مركبات حرفية (PPs)، يرئسها حرف فارغ دلاليا، قد يظهر وقد لا يظهر (انظر أيضا مككولي (1988) McCawley في هذا الصدد). وافتراض الحرف الفارغ يمكن التخلي عنه إذا أردنا

2.4. إعراب بنيوي

إذا كان إعراب الظرف بنيويا، فهو بدون شك ليس بنيويا بالمعنى المتداول، أي أنه لا يفحص مثلما يفحص إعراب المفعول (في مخصص تطابق المفعـول، تط مف، إذا كان هذا الأخير محصورا في المفعـولات). إلا أن الفحـص في مخصص تط الفاعل أو تط المفعـول لا يستنفد كـل إمكانـات الإعـراب البنيوي. فهناك على الأقل نوعان من الإعرابات يبدو أنها بنيوية، ومع ذلـك فهي لا تدخل في نظرية الإعراب كما تمت صياغتها. الحالـة الأولى تتعلـق بإعراب المفعول المطلق، والثانيـة تتعلق بإعراب الصفات (التي تـأتي بعـد الأسماء الموصوفة)، وكذلك عامة التوابع. فإذا وسعت النظرية الإعرابية لتشمل هاتين الحالتين، فإن إعراب الظرف سيدمج في واحدة منهما، وإن كنت أميل، كما سأبين، إلى أن إعراب الظرف أقرب إلى مماثلة إعراب النعت، منـه إلى مماثلة إعراب المفعول المطلق.

لننظر أولا في إعراب المفعول المطلق. فكمـا بينـت في الفاسـي (1986 و1988)، فإن المفعول المطلق أقرب إلى الفعل (في البنية الداخليـة للمركـب الفعلي) منه إلى المفعول به. وهو يسهم في عمليـة مـا دعـي "بـالتقدم في الإعراب" أو تقدم الموضوعات (case or argument advancement) في البنـاء للمجهول (عندما يكون المفعول به غير موجود). وفي مقـابل هـذا، فـإن الظروف لا تشارك في هذا التقدم، وإلا فقدت ظرفيتها. وعلى افـتراض أن المشاركة في التقدم الإعرابي هي خاصية للموضوعات، يمكـن أن نقـول إن المفعولات المطلقـة، بصفتها تشارك في هذا التقدم، موضوعـات (يتـم فحص إعرابها في تط). إلا أن المفعولات المطلقـة الـتي تتصـرف تصـرف الظـرف (وتَنْعَتُ الحدث) تحمل علامات إعرابية لا يمكن فحصـها بنفـس

التفريق بين المركبات الاسمية والوصفية من جهة، والمركبات الحرفية مـن جهـة أخـرى، لأن المركبات الاسمية (الظرفية) لها توزيع مغاير للمركبات الحرفية.

الطريقة. وعليه، فإن المفعولات المطلقة تفرز سلوكا مزدوجا، إذ يمكن استعمالها كموضوعات أو كظروف. فعلى افتراض أن المفعولات المطلقة موضوعات حدثية (event arguments) تشبع موقع الحدث في الفعل، فإنها تتلقى مثل بقية الموضوعات إعرابا بنيويا (مثل الفواعل أو المفعولات). وأما عندما تكون ظروفا (كيفية)، فإنها إنما تكون نعوتا لهذا الموقع الحدثي.

لنفرض الآن أن الظروف، مثل المفعولات المطلقة الظرفية، نعوت لموقع الحدث في الفعل أو الحمل. فإذا كان الأمر كذلك، فإنها توازي الصفات، التي تمثل نعوتا لموقع (إحالي) في الاسم (انظر الفصل حول الصفات). وبما أن الصفات النعوت (التي تأتي بعد الاسم) تشترك معه في الإعراب، فإن من المعقول أن نفترض أن الظروف تشترك في الإعراب مع الأحداث التي تنعتها (هذه الظروف). فإذا كانت هناك آلية لتقاسم السمات (feature sharing) تعمل في تراكيب النعوت الاسمية، فإن إعراب الظرف (أي النصب) شيء منتظر، ما دام مظهرا لإعراب المفعول الداخلي، أو المفعول المطلق.[18]

إن موازاة إعراب الظرف وإعراب النعت لها دلالة مثيرة أخرى. فقد بين الفاسي (1997، وانظر أيضا الفصل حول الصفات في هذا البحث) أن الصفات تتلقى الإعراب عبر آليتين مختلفتين، بحسب وجودها قبل الاسم أو بعده. فالصفات التي توجد في بداية المركب الاسمي تتلقى إعرابا بنيويا مباشرا (دون أن يكون هناك لجوء إلى آلية تقاسم السمات). وهذه الاستراتيجية، التي يتقدم فيها النعت على منعوته، تبدو أيضا موظفة مع الظروف، كما تبين ذلك التراكيب (40) إلى (45) أعلاه. ففي هذا الموقع، تتلقى ظروف (هي ظروف الدرجة degree adverbs) إعرابا بنيويا بالطريقة

---

[18] لاحظ أنني استبعدت أن يكون النصب مسندا (أو مفحوصا) مباشرة بالنسبة للظروف لأنها قد تكون أقرب إلى الفعل حتى من المفعولات المطلقة (انظر لارسن (ن.م.) وستروبك (ن.م.) من بين آخرين).

المعهودة. وأما حينما تكون الصفات في موقع بعد الموصوف، فإنها ترث إعراب الموصوف عبر آلية التقاسم. وأظن أن الظروف التي تتلقى إعراب النصب ترثه عن طريق آلية التقاسم كذلك (مع إعراب الحدث). وهذا التصور يدعمه: (أ) كون إعراب الظرف/النعت يمكن أن يتغير حسب موقعه في البنية و(ب) كون الظرف يمكن أن يكون اسما بسيطا (بدون علامات، باستثناء الإعراب)، أو يكون مركبا إضافيا (المضاف إليه فيه هو الحدث)، كما في (46):

(46) أ) الرجل مسرور تماما

ب) الرجل مسرور تمام السرور

فإذا كانت الظروف موجودة حقا في مخصصات إسقاطات زمنية-جهية، فإنها تسوغ وتؤول عبر التطابق مع رؤوسها، باعتبار السمة الواردة. وأما فيما يخص الإعراب، ونظرا إلى أن الظرف ليس في موقع موضوع، فإن الإعراب هناك لا يمكن أن يفحص مباشرة (عبر مخصص الفعل)، وإنما من المحتمل أن يفحص عبر ربط الظرف بموقع الحدث (وهو موقع موضوع). وعليه، فإن الإعراب يفحص أو يورث عبر سلسلة إعرابية (Case chain).[19] وهذا يوحي بأن الظروف يتم فحص سماتها مرتين، مرة للتأكد من دورها المحوري، ومرة للتأكد من إعرابها، وذلك عبر آليتين مختلفتين.[20]

---

[19] انظر بنتر وهيل (ن.م.) اللذين يفترضان أن الربط (binding) هو الآلية الملائمة لفحص الإعراب.

[20] إسناد الإعراب إلى المحمول النعوت (مثل الظروف) يمكن تصوره على أنه وسم لتبعية بين محمول وآخر، لتكوين محمول مركّب (أو سلسلة محمولات) عبر إسناد الإعراب (أو الربط الإعرابي). ففي "جاء الرجل البارحة"، مثلا، يكون الظرف معيّنا أو ناعتا للموضوع الداخلي الزمني. وفي "ضربت الولد ضربا"، يكون المفعول المطلق مكررا للموضوع الداخلي، وعليه يصبح "ضربا" من التأكيد. وفي "جاء الرجل مبتسما"، يمكن أن نماشي لارسن (1988) في افتراض وجود محمول مركب يشمل المحمول الثاني (secondary predicate). ففي كل هذه

وهناك قيود إضافية على الظرفيات المنصوبة، مقارنة مع المركبات الحرفية الظرفية. فالمركب الاسمي الموجود داخل المركب الحرفي الظرفي لـــه إعـــراب داخلي، لا يُفْحَصُ في إســـقـــاط الرأس الذي ينتقـــي المركـــب الحـــرفي. وسأُماشِي شومســـكي (1995) وشنكـــوي (1997) في افـــتراض أن هـــذه المركبـــات الحرفية مولدة في مواقع دنيا في المركب الفعلي (VP) كفضـــلات، وليس كمخصصات لإسقاطات وظيفية (كما هو الشأن بالنسبة للمركبـــات الاسمية الظرفية). فكون الظروف الزمنية وظروف الكيف (أو بصفة أعـــم الظروف التي تنعت الحدث) تأخذ صورة أسماء منصوبة بصفة شبه حرة، بينما ظروف المكان، مثـــلا، لا تُستَعْمَلُ إلا في صورة مركبات حرفـــية، يمكن ان يكـــون عائدا إلى أن الإسقاطات الوظيفـــــية (الـــتي يُحتَمَـــلُ ألا تكـــون مخصصاتها إلا مركبـــات اسمية) ذات طبيعة زمنية أساســـا. فـــذوات مثـــل المكان لا ترتس إسقاطات وظيفية، فيما نعلم.[21]

5. ظروف الزمان والمكان ومستويات التسويغ

الفرق بين ظروف الزمان وظروف المكان يمكن رصده كما يلي: ظروف المكان لا تسوغ (عادة)، كأسماء ظروف، لأنها لا يمكن أن تعتبر مربوطة بموقع داخلي للفعل. فليس هناك موضوع داخلي للفعل يدل علـــــى المكـــان، لأن

الحالات، يكون الظرف أو الحال أو المفعول المطلق مُعَيِّنا (identifying) أو ناعتـــا للموضـــوع الحدثي الداخلي. وبناء على هذا التعيين أو الوصف، تتلقى هذه المكونـــات النصـــب (وهـــو الإعراب العادي للموضوعات الداخلية)، عبر آلية تقاسم الإعراب (في سلسلة إعرابية). وهـــذا يوازي الطريقة التي يسند بها الإعراب للصفات التي تأتي بعد الموصوف (انظر الفاسي (1997)).

[21] المقولات الزمنية والوجهية هي، دون شك، إسقاطات مُوَسِّمَة للفعل، بينما المكـــان ليـــس كذلك. فالمكان "معجمي"، وليس وظيفيا، وهو مُسَوَّغ داخل المركب الفعلي المُقَوْقَع.

الموضوع الداخلي الوحيد (أي الحدث) يدل على الزمان.[22] وهكـــذا، فـــإن ظرف المكان لا يسوغ كحمل "تابـع"، بينما الزمان يسوغ كذلك. وهـــذه الفروق تمثل لها الأمثلة التالية:[23]

(47) الأستاذ اليوم غير مرتاح

(48) أ) الأستاذ في الجامعة غير مرتاح

ب)* الأستاذ الجامعة غير مرتاح

(49) أ) نلتقي اليوم

ب) نلتقي مكان الحادث

فالمركب الحرفي يحتاج إلى أن يسوغ تأويليا، بينما المركب الاسمي يحتاج إلى أن يسوغ تأويليا وإعرابيا. لنفترض أن (جل أو كل) المركبات الحرفية الظرفيـــة مسوغة/مؤولة في بنـــــية مركب فعلي مُقَوْقَعَة (VP shell) وأن المـــركبات الاسمية مسوغـــة/ مؤولة في المجالات الوظيفية (في المخصصات)، ويســـند أو يفحص إعرابها في نفس المجالات.[24] فإذا أخذنا افتراض المخصص بجد، فـــإن الظروف الاسمية تَفْحَصُ عددا من السمات الوظيفيـــة (داخـــل الإســـقاط الصَّرْفي الجملي)، علاوة على سمات القوة الإنجازية. وكون بعض الظـــروف (مثل ظرف المكان) لا يمكن أن تأخذ صورة مركبات اسمية، ولا تكون إلا في صورة مركبات حرفية، يعتبر مؤشرا على عدم وجود سمة وظيفية مـــن هـــذا

---

[22] هذا ما يقابل الموقـــع [حـــدث] عنـــد دافدســـن (1980) Davidson وهكبثـــم (1985) Higginbotham، وبرسنز (1990) Parsons.

[23] أفترض أن الأسماء لها أيضا موضوعات زمنية داخلية، يستعملها الظرف الزمـــني كمُقْتَمَـــد (anchor).

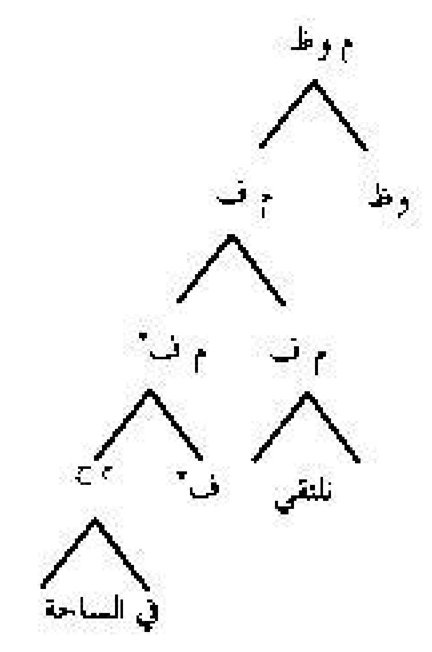
[24] في لارسن (1985) أن الأسماء (ككل المقولات) يمكن أن تتلقى أدوارا ظرفية بصفـــة حـــرة، ويصبح المشكل إذن مشكل الإعراب، لا التأويل. إلا أن هذا التصور إشكالي، كما رأينا.

النوع يمكن من فحص سمة المركب الاسمي المتموقع في المخصص.[25] وورود الظروف كمركبات حرفية لا يطرح هذا المشكل لأن هذه المركبات لا تدخل في نسق الفحص (بالمعنى الوارد هنا). وعليه، يمكن أن نفترض أن هذه المركبات مُسْقَطة "بحُرِّيَّة" (freely projected)، أو هي مسوغة فقط في التركيب، وليس لتسويغها أساس معجمي.[26] [27]

---

[25] يمكن أن نفترض كذلك أن المكان لا يمكن أن يستعمل كحمل أو نعت لأنه "مُحَدَّد" (determinate) بالنظر إلى خصائصه الدلالية الداخلية.

[26] في بنية مقوقعة، تُعتَمد الفضلات الظرفية على فعل "صغير" ف (أو "خفيف") يولد تحت الفعل الرئيسي. وهذه الأفعال الصغيرة هي بمثابة حمول بالنسبة إلى المركب الفعلي (كما في نظرية دفدسن (Davidson (1980). فالبنية التالية يمكن أن تقترح لهذه الظرفيات (كما في شنكوي (1997)):



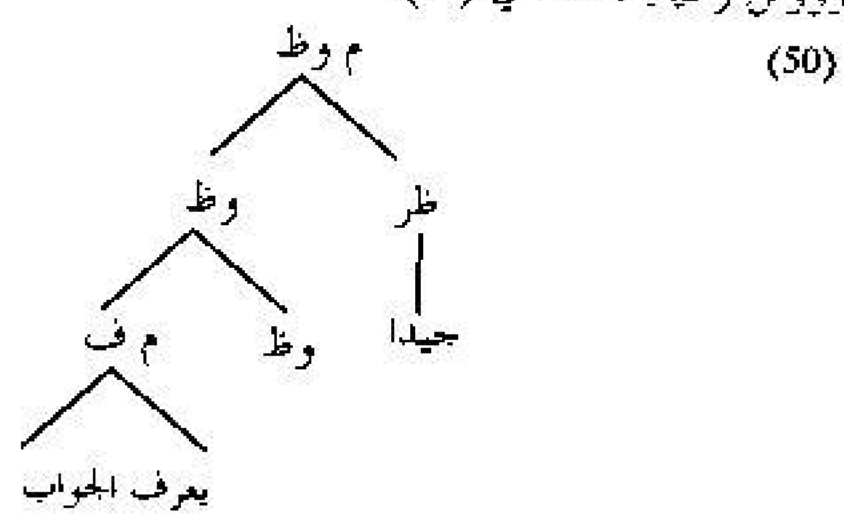
ف* فعل صغير

[27] فبناء على هذا التصور، وهو أن الظروف الزمنية تتلقى إعرابا (بصفتها أسماء أو صفات)، بينما الأمكنة مركبات حرفية، كيف يمكن أن نفسر أن بعض الأمكنة تتلقى إعراب النصب؟ أظن أن الإعراب في الأمكنة ضرب من الإعراب المعجمي (المحايد)، وليس إعرابا بنيويا. لقد

6. خلاصة وخاتمة

بينت أن الظروف العربية يقع توليدها على أساس أنها مخصصات إلى يمين رؤوس وظيفية، كما في (50):

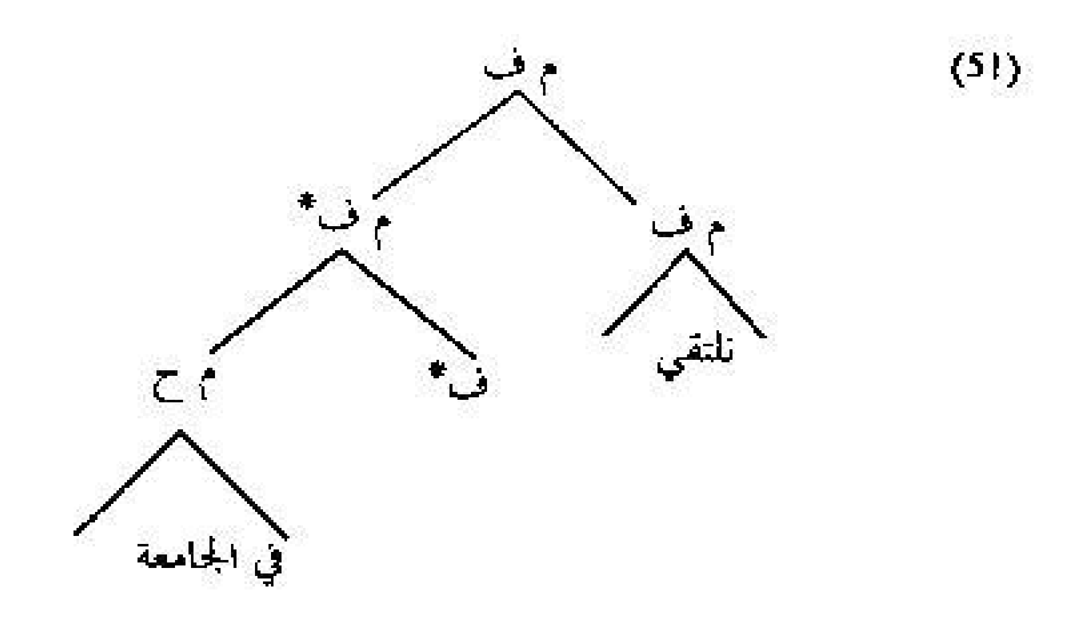
(50)



ثم إن سلمية الظروف وتراتبها القار وتأويلها كلها تخضع لسلمية كلية للمقولات الوظيفية موسَّمَةٍ أنطولوجيا. ومن جهة أخرى، فإن الظرفيات التي تأخذ صورة مركبات حرفية تولد في بنية مفوقعة، كما في (51):

لاحظ القدماء أن الأزمنة تتلقى النصب، سواء أكانت مبهمة أو مخصصة (بالصفة أو بالإضافة)، بينما الأمكنة يجب أن تكون مبهمة، محدودة في الجهات والمقادير (انظر ابن عقيل، ج.1، ص.582-583).

(51)



وأخيرا، فقد تفحصنا خصائص الأسماء الظروف الإعرابية، وبينا أنها ذات طبيعة بنيوية. والموضوع بحاجة، طبعا، إلى مزيد من البحث للتدقيق.

الفصل الخامس

المصطلح المُوَلَّد*

* يمثل هذا النص صيغة للدرس الافتتاحي الذي ألقي بمعهد الدراسات والأبحاث للتعريب في دجنبر 1995، وكذلك الورقة التي قدمت في الندوة الدولية التي نظمتها الجامعة الدولية الإسلامية بماليزيا حول "اللغة العربية وتحديات القرن الواحد والعشرين"، بكوالالمبور، غشت 1996.

1. في الاصطلاح وتصوراته

الاصطلاح في أصل اللغة الاتفاق والتوافق. واصطلح القوم: تصالحوا، بمعنى وقع بينهم صلح، وصالح بعضهم بعضا. فالتاء بمعنى التشارك والاشتراك. ومعنى التفاعل مُخَرَّج على المطاوعة، كما جاء في مثل "اجتور" بمعنى "تجاور"، و"اشتتم القوم"، بمعنى "شتم بعضهم بعضا"، وكذلك "اشتركوا"، و"اختصموا"، و"اقتتلوا". فكلها صيغ مطاوعة تفيد المشاركة والتفاعل. وفي تعريفات الجرجاني أن "الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما، ينقل عن موضعه الأول". والجدير بالذكر أن ما ورد عند القدماء هو لفظ الاصطلاح، ولم يرد عندهم لفظ "مصطلح".

ولاشك أن من أهم الإشكالات التي يواجهها أي برنامج اصطلاحي إشكالان أساسيان:

أ) توفير عدد هائل من المصطلحات لمواكبة الحاجة الملحة إلى التعبير عن مفاهيم وتصورات جديدة بعبارات اصطلاحية يوازي عددها عدد العبارات الذي توفر في لغات الحضارات المتقدمة.

ب) إشكال التقريب والشفافية بين اللغة العامة المتداولة أو المعجم العام واللغة المختصة أو المعجم المختص أو الاصطلاحي أو القطاعي، حتى لا يتعدد التواضع في الاصطلاح ويستغلق، وحتى يظل الذهاب والإياب بين المعجم العام والمعجم المختص قائما وفاعلا.

وأظن أن هناك نزعتين أساسيتين لمقاربة الاصطلاح: (أ) مقاربة يمكن أن ننعتها بأنها مقاربة *لغوية طبيعية* للاصطلاح (natural)، و(ب) مقاربة ثانية يمكن أن نقول إنها مقاربة *موسوعية تواضعية* (conventional and/or encyclopedic). والمقاربة اللغوية ينبغي أن تقترن بتمثل اصطلاحي "ذكي" أو خبير ونسقي، في حين أن المقاربة الثانية غالبا ما يكون فيها الاصطلاح تلقائيا تلمسيا، يتسم بالتشتت وعدم اتضاح النهج والرؤيا. وفي كلتا المقاربتين، نحتاج طبعا إلى اللغوي من جهة وإلى المختص في المجال المعرفي للاصطلاح من جهة ثانية، ولكن قرارات الضبط الاصطلاحي تعود بالدرجة الأولى إلى المصطلحي.

المقاربة اللغوية للاصطلاح تقوم على فكرة أساسية هي أن *اللغة المختصة ما هي إلا إسقاط لنظام اللغة العام في مجال معرفي معين*. هذا الافتراض من السهل دعمه بالنظر إلى الشكل أو إلى العبارة. فلا أحد يشكك مبدئيا في أن العبارات الاصطلاحية، في بنيتها الصواتية والصرافية وخصائصها التركيبية، ينبغي أن تكون خاضعة للضوابط التي تضبط اللغة العامة. وكلما خرجنا عن هذه الضوابط يقع التشكيك في سلامة العبارة. طبعا، هناك التجوز والضرورة في الاصطلاح (في الاشتقاق، والتأليف، والنحت مثلا) كما يقع في اللغة العامة، والضرورة تجعلنا نخرج عن ضوابط اللغة، ولكننا قد نناقش مشروعية هذه الخرجات. ننسب مثلا إلى غير المفرد في: *شفتاني* أو *أسناني* أو *أصواتي*، والأصل النسبة إلى المفرد. وهناك استعمال غير مسبوق للواصق أجنبية في قول بعضهم: *صوتيم*، عوض "صوتية" للدلالة على فونيم (phoneme)، أو بتر جزء من الكلمة كقول بعضهم: *برنام*، والأفصح *برماج أو برمجة*، الخ، لأن البتر في أصل اللغة العربية يكون بترا لما هو زائد. والعرب عدوا النون زائدة

عندما جمعوا برنامج على برامج، ولم يجمعوا على "برانم". وليس هناك مسوغ للجوء إلى الضرورة هنا.

هناك حقيقة تحجيرات" أو قيود على مستوى تركيب الاصطلاح يدخل فيها ما يسمى ب collocation أو phraseology أو العبارات المسكوكة(idioms) الخ. من أمثلة هذا أن رقم الهاتف في الفرنسية "يؤلف" se compose، وهو "يختار" في الألمانية wählen، و"يتصل به" في العربية. وهناك حذف لبعض الأدوات في تركيب الاصطلاح. نقول مثلا imprimante laser عوض imprimante à laser، ونقول كذلك "سمعي بصري" (عوض "سمعي وبصري")، فهناك تحجير في اللغة المختصة على مستوى التركيب. وهذا شيء لا يطعن في نسق اللغة بقدر ما هو تقييد للنسق في بعض جوانبه.

فالنسق الذي يتحكم في العبارة يمتد من اللغة العامة إلى اللغة المختصة. وتكوين الكلمة ينبغي أن يخضع للضوابط المعهودة (الاشتقاقية والنحتية والتأليفية، الخ). الشيء الثاني يتعلق بالدلالة والمعنى. وهنا نجد عناصر تبدو مظهريا مدعمة للموقف الموسوعي، وإن كنا نعتقد أن ضوابط الدلالة الاصطلاحية وعلاقة اللفظ بالمعنى تخضع أيضا لضوابط اللغة العامة. ولكن هذا التصور تعترضه مظهريا عدد من المعطيات:

1) هناك تصور جهة الاقتران بين العبارة والمعنى. فهذا الاقتران في اللغة العامة يوصف عموما بأنه اقتران طبيعي (natural)، في حين يوصف الاقتران في الاصطلاح بأنه اقتران مواضعة (conventional).

2) إن المفردات المختصة ترتبط بالجوانب الموسوعية أكثر من ارتباطها بالأبعاد المعجمية العامة. والمختص هو الذي يستطيع تحديد المضامين، والتسمية لا تعكس دائما المضمون، بخلاف ما هو عليه الشأن في اللغة العامة. ودرجة الاعتباط تكون أكبر في اللغة المختصة.

3) هناك في كثير من الأحيان زيغ للمعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي. ففي الأدبيات اللسانية التوليدية هناك قصة ما يسمى بالبنية العميقة

deep structure التي تفجرت عنها مذاهب ومدارس، لأن البعض قصد المعنى الاصطلاحي، والبعض الآخر ذهب إلى معنى أقرب إلى المعنى اللغوي. وهناك مثال آخر نأخذه من لفظ charm. فهذا اللفظ يعني عموما الرقة في الجمال أو الفتنة. وفي النباتيات يسمي شجرة من الفصيلة البلوطية (تبرية). وفي الصواتة phonology يعني التأثير والجذب. نجد نظرية العاملية والتأثير أو الجذب theory of charm and government وأصحابها يدعون أنهم نقلوا هذا المفهوم عن المفهوم الفيزيائي. فحينما نتحدث عن charm في الفيزياء بصفته قياسا ل quark لا ندري هل هذا المفهوم له قاعدة استعارية، تجعل أن الجزيئة أوالكوارتز يتسمان بالتأثير.[1] إلا أن وجه الاستعارة قد يكون غير شفاف، وقد يخرجه المختص على الاعتباط. ويمكن أن نجلب بعض هذه الأمثلة لنقول إن اللغة الاصطلاحية تبتعد في كثير من الأحيان عن اللغة العامة. وقد نتساءل عن وجه العلاقة بين الألفاظ (ووجه الاستعارة، الخ).

4) ومن مظاهر الزيغ عن النسق أيضا عدم إمكان التفكيك أو التأليف في كل الاصطلاحات. ففي قولنا "قياس سمعي" audiomètre، مثلا، نجد تأليفا، ولا يمكن تجزيء diamètre (قطر الدائرة) على الشاكلة التي يجزأ بها audiomètre أو diachronie (عبر الزمن).

ومع كل هذه الملاحظات هناك ما يسير في اتجاه النسقية. هناك الالفاظ التي تنتقل عبر المجالات دون تغير مدلولها. لفظ بنية أو structure نجده في اللغة والاقتصاد والفلسفة بنفس الدلالة تقريبا. كلمة: marque مثلا، أو "السمة" تنتقل عبر الحقول وعبر المجالات في الصواتة والصرافة والتركيب، وبين المجالات المعرفية، وعبر التصاريف أيضا، فنقول marquage "وَسْم"، و marqué "موسوم"، الخ. فكلما ابتعد التواضع عما هو نسقي في اللغة العامة، كلما ابتعدنا عن الاصطلاح الأمثل الذي يمكن من الحركة والتطور والتصريف والتوليد، الخ. بالاضافة إلى هذا، فإن التسمية أو المصطلح له جوانب

---

[1] انظر في هذا الصدد كيي وجماعة (1988).

مفهومية قد تكون كلية، وجوانب تصورية ضاربة في الثقافة، والسبل التي ينظر بها إلى العالم، ورؤيتنا للعالم وصنافاته، الخ.

هذه الروافد الثقافية تكون حاضرة في اصطلاحات كثيرة، على الرغم من أن الاصطلاح يبدو محيلا على ما هو موضوعي أو مفهومي أو ما هو مستقل عن الثقافة. فإذا نظرنا إلى لفظ "اصطلاح"، نجده يتصل بالصلح والاتفاق في التصور العربي. وأما لفظ terminology، فليس له هذه الحمولة. لفظ "فعل" في النحو يعني الحدث والتصرف في الزمن، في حين أن verb لا يعني هذا، وإنما هو مرتبط بالكلام، الخ. إذن برنامج الاصطلاح يدخل ضمنه التوفيق الصعب بين جانب الأثالة etymology والطبيعية وجانب الاصطلاح والمواضعة، والتوفيق بين ما هو متفرد في المعنى وما هو ملتبس، والتوفيق بين التفرد والتعدد في العبارة. وهذه الاشكالات تدخل ضمن إشكالات اللغة العامة، واللغة المختصة لا تفرز إلا بعضا منها.

وبالإضافة إلى إشكال الفرق بين اللغة المختصة واللغة العامة، هناك إشكال توفير *كم هائل من المصطلحات*. وهذا الإشكال لا يحل إلا عن طريق النسقية، التي لا تتوفر إلا عبر النظام العام للغة. ويمكن ترجمة هذه النسقية في الحاسوب عبر آلية التوليد.

2. المولد المصطلحي GENTERM

نصل إذن إلى الحديث عن المولد المصطلحي GENTERM باعتباره قاعدة معطيات ومعارف اصطلاحية تبنى عن طريق آلية التوليد. استعمال هذه الآلية يمكننا من توليد المصطلحات الموجودة والمصطلحات الكامنة التي لم توظف بعد، ولكن يمكن وضعها لتسمية ما يأتي من مفاهيم وتصورات.

يهدف مشروع *قاعدة الاصطلاح المولد* GENTERM إلى بنـــاء قـــاعدة معطيات مصطلحية متعددة اللغات باعتماد آليات التوليد. وبما أن كل لغـــة قطاعية (أولغة مختصة) ليست سوى إسقاط لنظام اللغة العامة في مجال معـــرفي معين، كما بينا، فإن عمليـــات الاصطلاح (أو التوليد المختـــص) يجـــب أن تغرف من إمكانات الصور أو العبارات المعجمية المتوفـــرة بهـــدف تســـمية المفاهيم. والأساس الفلسفي الذي يسوغ اللجـــوء إلى التوليـــد في قـــاعدة الاصطلاح المولد هو أننا لا نخلق المصطلحات أو المولدات، بل نستعيد فقط ما هو كامن في اللغة ليصبح متداولا بالفعل.

وغالبا ما يتساءل واضع المصطلح أو التسمية المختصة في اللغة عما إذا كان "إبداعـــه" هذا منسجما مع نظام اللغة العامة التي يسمي فيها. وإذا تعلق الأمر بالاصطلاح المتعدد (في أكثر من لغة)، فإن سيرورات النقل أو القرْن تكـــون أكثر تعقيدا. ويحتاج المصطلحي المبدع إلى *مدقق لساني* خبير يكون بمقـــدوره تقييم الكفاية الابداعية، ويحتاج كذلك إلى أداة مساعدة تمكنه مـــن إحصـــاء وجرد الامكانات التي تتيحها لغة معينة (أو لغات متعددة).

ويقتدي المولد المصطلحي بمشروع مولـــد الصـــور المعجميـــة GENFO (انظر الفقرة 3) الذي يمثل قاعدة معطيات مولدة "ذكية"، تتضمـــــن جميـــع الصور المعجميـــة التي تنتمي إلى اللغة العامة. وهو مشروع يتـــم تنفيـــذه في معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، ويهدف بالأساس إلى تحديد مكونـــات الخلق والابتكار في اللغة العربية، وإن كان قابلا للتطبيق على لغات أخرى.

وهناك عدة وسائل توظف في عمليات التســـمية، بإنتاجيـــة متفاوتـــة، وضمنهـــا: الاشتقاق والتأليف في الكلمة المركبة، والمركبـــات، والنحـــت، والمجاز (الاستعارة أو الكناية)، والاقتراض، الخ. وسواء تعلق الأمر بالصرافة أو التركيب أو الدلالة، فإن المصطلحـــات تمثل وحدات لغوية مدمجـــة، تخضـــع بصفـــة شبه نسقية لمبـــادئ سلامة التكوين التي تتحكم في اللغـــة العامـــة.

— — — — — — — — — — —

طبعا، المصطلحات وحدات مَعْرِفية ذات محتوى ثابت، وهذا يجعلها تفرز قيودا وتحجرات في شكلها ومضمونها (انظر الفقرة 5). إلا أن البحث الاصطلاحي، بصفته تنظيما نسقيا للمفردات الخاصة، يظل تابعا لنظام اللغة العام، حتى في خصوصياته التصورية والثقافية. وهذا ما يبرر مقاربة لسانية للاصطلاح، ويسوغ ادماج آلة نحوية-معجمية من قبيل مولد الصور في المصطلح المولد.

3. مولد الصور GENFO

تتسم الدخلات في قواعد المعطيات المعجمية المعروفة بسمتين أساسيتين:
أ) إنها سلاسل حروف (أوقطعات) تمثل الجذوع أو كلمات أكثر تعقيدا من الجذوع. وعدد هذه القطعات كبير جدا (500,000 مثلا بالنسبة لمعجم ضخم). ولا تتقيد هذه القواعد بأي نظام ضابط، يمكن من تمثل سيرورات التذكر أو التخزين (storage) في المعجم الذهني، أو فهم كيف تتم عملية الاسترجاع (retrieval) أثناء عملية الانتاج.
ب) لا تذخر قواعد المعطيات المعجمية إلا بمجموعة محدودة من صور المفردات المنقولة والمسموعة، ولا تقدم معلومات حول الصور التي لم تذخر، أو حول الصور الممكنة، ولكنها لم ترد في الرواية، وقد تكون مولدات كامنة يمكن استعمالها في إطار الابتكار المعجمي.

ويسعى مولد الصور GENFO إلى سد الثغرات الموجودة في هذه القواعد المعجمية عن طريق بناء قاعدة معطيات ذكية، تولد جذورها (الصامتية) وصيغها (الصائتية) وجذوعها وصورها المركبة انطلاقا من قواعد توظف مجموعات من الذوات (أو أبجديات) محدودة العدد. وتتدخل عمليات التوليد في اللغة العربية في عدة مستويات:
أ) *توليد الجذور* (انطلاقا من أبجدية صامتية) لتكوين معجم الجذور المحدد آليا.

ب) *توليد الصيغ* (انطلاقا من لائحة الصوائت ومتغيرات أماكن الصوامت) لتكوين معجم الصيغ المولد آليا.

د) *توليد جذوع مركبة* تتضمن لواصق (سوابق ولواحق وأواسط).

ج) *توليد الجذوع* (بالمزاوجة بين الجذور والصيغ) لتكوين معجم الجذوع المحدد آليا.

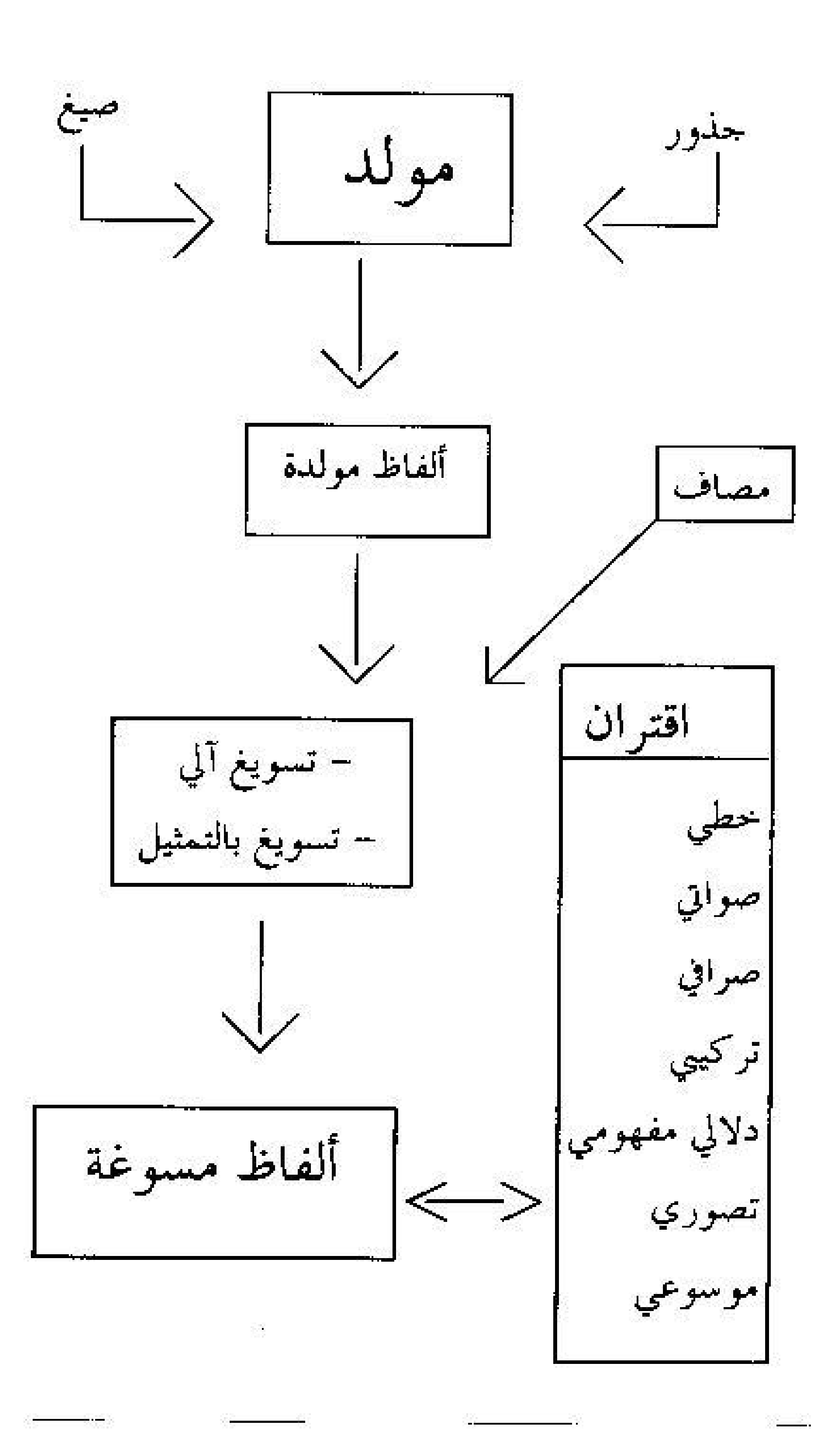
هـ) *توليد صور لمفردات نصية* (textual words) انطلاقا من تأليف جذوع مع متصلات (clitics) سابقية أو لاحقية.

ويؤدي هذا النظام إلى توليد فائق (overgeneration)، ولابد من مصاف (filters) في كل مكون من مكونات التوليد. وإضافة إلى المولدات والمصافي الآلية، هناك إجراء للتسويغ أو الإثبات (validation) عن طريق جرد المواد الموجودة في القواميس أو النصوص المكتوبة أو الشفوية. وبموازاة مع ذلك، هناك قرن الصور المولدة والمثبتة (يدويا) بمعلومات معجمية مبنية ذات طبائع مختلفة:

- خطية
- صواتية
- صرافية
- تركيبية
- دلالية
- ذريعية / بلاغية.

4. الخطاطة العامة لقاعدة الاصطلاح المولد

قاعدة الاصطلاح المولد قاعدة لا تختلف جذريا عن قاعدة الصور المولدة، التي تتجه إلى اللغة العامة وخاصة اللغة العربية العامة. وهذه الخطاطة تعطي فكرة عن الطريقة التي تشتغل بها الآلة.


صيغ
مولد
جذور
ألفاظ مولدة
مصاف
- تسويغ آلي
- تسويغ بالتمثيل
اقتران
خطي
صواتي
صرافي
تركيبي
دلالي مفهومي
تصوري
موسوعي
ألفاظ مسوغة

للتبسيط، انطلقنا من الجذور (الجذور المولدة من الأبجدية)، وبواسطة المولد الذي يتضمن قواعد التوليد تقرن الجذور بالصيغ وتولد عددا من الألفاظ، يمكن أن تنطبق عليها قواعد الإلصاق. إذن الألفاظ المولدة تخضع لمصاف، وهذه المصافي مصاف آلية. بالنسبة للجذور، مثلا، نصفي بصفة آلية جميع الجذور التي يتكرر فيها نفس الحرف. مثلا "أأأ" جذر غير ممكن يصفى آليا. كذلك، نصفي الجذور التي تبتدئ بصامتين متماثلين مثل "بيأ". وإذا كانت هناك بعض الحالات الخاصة ندرجها في معجم خاص، ولكنها لا تولد بطريقة آلية (مثل ببر، ددن، الخ). فهناك مصاف هي عبارة عن قواعد تصفي عددا من هذه المولدات. وبعدها ننتقل إلى عملية التسويغ (validation) وهناك تسويغ آلي وتسويغ بالتمثيل نرجع فيه إلى المعاجم أو إلى النصوص. فمن حيث المبدأ، هناك بعض الصور التي تكون ممكنة على مستوى النسق، ولكن لا نجدها في المعاجم أو بعض النصوص. وهذا لا يعني أنها غير موجودة، بل هي كامنة في اللغة. فليس هناك ما يدعو إلى الاعتقاد أنها لا تنتمي إلى اللغة. فهذا منهج افتراضي، وكما كان يقول بوبر (Popper): "فحتى لو رأينا أن جميع البجع أبيض لا يمكن أن نستخلص أن جميع البجع أبيض". وهنا نفس الشيء. لو رأينا أنه في جميع المعاجم العربية وفي جميع النصوص لا توجد بعض الكلمات، فهذا لا يعني أنها ليست كلمات عربية. وهذه الفكرة الأساسية تجعلنا نفرق بين الأشياء التي نصل إليها عن طريق التوليد، أو عن طريق التوليد المقرون بنسق، والاشياء التي ننقلها فقط من نصوص، وحينما ننتهي من عملية التسويغ ننتقل إلى الألفاظ المسوغة التي تقترن ببنى خطية وصواتية وصرافية وتركيبية، وبالبنية المفهومية التصورية، وبالمعلومات الموسوعية بالنسبة لهذا النموذج. هذه هي الصورة العامة التي تشتغل بها الآلة الاصطلاحية وهي تقريبا نفس الآلة في GENFO. الفرق الوحيد بين هذا النموذج والنموذج العام هو أننا عوض الحديث عن الموسوعة نتحدث عن المكون الذريعي المقامي، لأن المقام أو الذريعيات ليس لها وزن يذكر في الاصطلاح، والذي له وزن هو روافد المعرفة، أي الموسوعة.

— — — — — — — — — —

5. اللغات المختصة، المكونات المفاهيمية والمعرفية، والخصوصيات الثقافية

إذا كانت المصطلحيات تتوق لأن تكون "دراسة علمية للمفاهيم والألفاظ المستعملة في اللغات المختصة" (ISO، 1087، 1090)، فإن التوليد المختص يمكن تصوره على أنه اصطلاح كامن يتجه نحو التمثيل والتحقيق. وبما أن النشاط الاصطلاحي أو التوليدي يرتكز بالأساس على الغرف من رصيد الصور المعجمية المتوفرة لتسمية المفاهيم، أو توظيف صور مستعملة في مجال مفرداتي خاص بحقل معرفي، فإن مشكل العلاقة بين اللغة المختصة واللغة العامة يطرح نفسه بإلحاح.

ومن المعلوم أن صور المفردات الواردة في النصوص المكتوبة أو الشفوية متعددة المعاني سواء في استعمالها التقني أو المصطلحي أو في استعمالها في اللغة العامة بصفتها لامصطلحات (non-terms): انظر مثلا لفظ droit الفرنسي (مصطلحا: علم، ضريبة، مبادرة، الخ، لامصطلح: من حقه à bon droit)، أو لفظ "مصدر" في العربية (مصطلحا: اسم حدث، لامصطلح: أصل) الخ. فللوصول إلى نوع من النسقية في الاصطلاح، وللتمكن من قرن مفردة بصفتها مصطلحا بمفهوم داخل حقل تصوري محدد، ينبغي أن نصل إلى فرز قدرة اصطلاحية (terminological competence) تعتمد مقاييس غير المقاييس التقليدية. ويمثل رأي المختص (الذي يراعى في وضع المصطلح) جزءا من هذه القدرة. وينبغي أن تدمج فيها المقاييس الصورية التي تمكن من التعرف على المصطلحات (مثل انتمائها لسلسلة مفردات صرافية خاصة، أو لتركيب مقيد، أو علاقة تبعية لمفردات تفرز هذه الخصائص، الخ.) بطريقة طبيعية ونسقية. وتعالج الجوانب الصورية داخل القوالب الصرافية والتركيبية لقاعدة الاصطلاح المولد. وتعالج الجوانب الدلالية (جزئيا) داخل القالب التصوري/ المفهومي. وقليلا ما نجد مصطلحات أحادية المعنى، خلافا لما يعتقد. فالمصطلح ينتمي عادة إلى حقول ومجالات معرفية متعددة ومختلفة. إلا أن هذا الانتماء المتعدد لا يكون اعتباطيا أو حرا، بل غالبا ما يكون مقيدا

بآلية التعميم عبر الحقول (cross-field generalization) التي أثبتت فعاليتها في رصد تعدد المعاني للمفردات غير الاصطلاحية.

وتجدر الملاحظة إلى أن المفردات، حتى في العلوم والتقنيات، لها حمولة ثقافية. والمصطلحات تحمل خصوصيات ثقافية: فألفاظ land الالماني أو generalidad الاسباني أو région الفرنسي ليست متوافقة تماما في المعنى.[2] ولفظ "الشريعة" (الاسلامي) لا يتوافق إلا جزئيا مع لفظ loi، الخ. فموضوعات المعرفة تدخل في تصورات مختلفة، الأمر الذي يبرر اللجوء إلى الاقتراض المختص للحفاظ على هذه الخصوصيات. مثلا إذا أخذنا ألفاظ langage و langue و parole، فما يقابل langue و parole بالانجليزية هو language و speech ولكن language تعني أيضا langage. وهناك من الأنجليز من يستعمل الكلمات الفرنسية للمحافظة على ما قصده دي سوسير في كتابه. وهذا يقع حينما نريد أن نحافظ على خصوصية. لفظ "الشريعة" يستعمل أيضا كما هو في الفرنسية أو الإنجليزية للمحافظة على مضمونه. وهذه الأشياء تدل على أن الحمولة الثقافية تبقى حاضرة في المصطلح. ولكي نصل إلى رصد الأبعاد التصورية والثقافية، ينبغي تصور المكون الدلالي على أساس أنه مكون مفهومي وتصوري.

ومعلوم أن الترجمة التقنية غالبا ما تتجاوز المشاكل التصورية والثقافية. وهي تلجأ إلى التكافؤ الوظيفي في الحالات الصعبة (مثلا، تكافؤ hypothèque و mortgage) أو تكافؤ arrhe و"عربون" مع لفظ انجليزي مثل deposit. فلفظ deposit في الأنجليزية لا يعني أن الذي يضع جزءا من المال لشراء شيء معرض لأن يفقد ماله. بينما arrhe في الفرنسية و"عربون" في العربية يعني أن الذي يضع جزءا من ثمن شيء إذا لم يكمل المال فإنه يفقده. طبعا "عربون" في اللغة العربية يتسع لمجالات أخرى. وغالبا ما تكون معرفة

[2] انظر لورا (1995) Lerat في هذا العدد.

المفاهيم شيء مرتبط بمعرفة الموضوعات والأشياء وخصائصها في الواقع العملي، مما يتيح إقامة التكافؤات بين لغات متعددة، وكذلك وضع حدود لاستعمال الكلمات الجديدة في مجال معرفي مُبَيَّن. وتُعَالَجُ المعرفة الموسوعية التي تهم المختصين في مكون مستقل، يوازي القالب الذريعي/ البلاغي في قاعدة توليد الصور.

6. خلاصة

أخلص إلى أن الاصطلاح، كما بينت، شيء ينبغي أن يخضع لضوابط ولنسقية. وتكون هذه الضوابط منبثقة من ضوابط اللغة العامة. هذا شيء أول. والشيء الثاني هو أن الاصطلاح المستقبلي لا بد أن يكون اصطلاحا مرتبطا بالتوليد الآلي، نظرا للعدد الهائل للمصطلحات التي نحتاج إليها. والمعالجة التي نقترحها لهذا المشكل هي نفس المعالجة التي اقترحناها لمشكل معالجة المعجم العام، إذ لا يمكن أن ننتقل في المعجم العام (إذا كان معجما ضخما يتضمن 500.000 دخلة)) من لفظة إلى أخرى بلواصقها وتصاريفها، مما يصل إلى ملايين الكلمات. فكل هذا يفرض علينا أن نتخذ طرقا ذكية لمعالجة المادة المعجمية ولمعالجة الاصطلاح.

الفصل السادس

عربية النمو والمعجم الذهني*

قال النبي صلى الله عليه وسلم: "ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم وإنما هي من اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربي". الحديث رواه الحافظ ابن عساكر، وذكره ابن تيمية في *اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم* (ص.80)، والسيد الامام محمد رشيد رضا في *الوحي المحمدي* (ص.230 و231).

---

* ألقي جزء من هذا البحث في إطار محاضرات دار الحديث الحسنية، و ألقي جزء آخر في الجلسات التي ينظمها معهد الدراسات والأبحاث للتعريب. وأتوجه بالشكر إلى الحاضرين على ما أفادوني به أثناء النقاش.

تروج في بعض الأوساط الثقافية والاعلامية والسياسية في بلادنا تساؤلات متراكمة ومتكررة قد يفاد منها التشكيك في الاقتناع بما يمكن أن تضطلع به اللغة العربية الفصيحة من أدوار فاعلة ومؤكدة في النمو والاتصال والوصول إلى المعلومات الحديثة أو المستحدثة. ويأتي هذا التشكيك من أطراف متعددة ومتنوعة، منها المدافع عن اللغة الأجنبية بدعوى قيامها بدور الانفتاح على العالم، ومنها المدافع عن اللغة الأمازيغية من أجل تمكين هوية إقليمية أو ثقافة محلية، ومنها المدافع عن اللهجة العامية بدعوى أنها اللسان الضارب في الوجدان، والمعبر في القطاعات الحياتية. وغالبا ما يلجأ المتشككون في قدرة اللغة العربية على المواكبة إلى منطق الاختزال، مستغنين في تصورهم للتعدد اللغوي عن الفصحى، بدعوى أنها ليست لغة الوجدان (وهو دور يوكل عادة إلى العامية)، أو ليست اللغة المثلى للحضارة (وهو دورغالبا ما يوكل إلى الفرنسية). بل إن اللغة الفصيحة تمثل عائقا، فيما يبدو، في مسار نمو الطفل المعرفي. وهكذا تجد الفصيحة نفسها، في إطار هذا النقاش، في صراع مع العامية من جهة، ومع اللغة الأجنبية من جهة أخرى. وهذا الكلام يذكر بما راج منذ ما يزيد على القرن في موضوع صراع العامية والفصحى (أو الازدواجية)، أو صراع الفصحى والأجنبية

(أي الثنائية)، وكأن الزمن لم يفد في شيء، وكأن كلامنا لا بد أن يكون معادا مكرورا.

وإذا كان تعلم اللغات الأجنبية وتوظيفها في عدد من القطاعات وفي *ملاسنة الاتصال* واقع وضرورة حتمية لاجدال فيها،[1] وإذا كانت الملاسنة مع الأمازيغية أو العامية العربية واقع ثقافي مُغنٍ ومشروع في إطار الامتداد الهوي والثقافي، بعيدا عن كل نزعة إلى التفرّد الاقليمي المفرط، فإن أي خطة لغوية موفقة وواقعية لا يمكن أن تقوم إلا بالتحكم في دينامية التعدد، وإقامة التوازنات المعقولة التي يمكن أن تسهم في نجاح هذه الدينامية. ولا شك أن اللغة العربية الفصيحة تتبوأ المركز في محيط الاتصال والتعدد، لا لكونها لغة الدين والهوية الوطنية فحسب، بل لأنها علاوة على ذلك، لغة النمو الفكري والحضاري والمجتمعي، في محيط عربي إسلامي بالأساس.

فمن المعلوم أن الثقافة الدينية والإعلام والفكر والعلم وأشياء أخرى كثيرة لا تصل لا بالعامية ولا بالأجنبية في المحيط العربي الإسلامي، وإنما تصل باللغة العربية الفصيحة، لأنها لغة الدين والحضارة والإبداع الأدبي، وما إلى ذلك من مجالات كثيرة لا يتمكن نمو العربي المعرفي والديني والمجتمعي إلا بالنمو فيها، لأن هذه المعارف نشأت باللغة الفصيحة، وتمكنت بها، وتفتقت طاقة العربي فيها.

ولئن كانت قلة قليلة من الكتاب أو الشعراء أو غيرهم ممن أبدعوا بالفرنسية يجدون فيها لغة الآداب والفكر، فهذه فرادات لا يمكن أن تعمم على مبدعي المغرب أو مبدعي العرب، لأن العرب أبدعوا بلغتهم، وفكروا بها.

---

[1] تطلق عبارة"ملاسنة" على الاتصال والالتحام الذي يقع بين الألسن.

وإذا كان موقف اختزال التعدد في الألسنة العامية واللغات الأجنبية لا يفي بالدور الحضاري والإبلاغي للألسن التي توجد في المحيط المغربي، فإن الموقف الموضوعي والعلمي يجعل من اللغة الفصيحة لغة المركز في هذا المحيط المتعدد الألسن، ويجعل اللغات الأخرى في أرباض هذا المركز، إن نحن ابتغينا التموضع الحضاري والثقافي والفكري.

إلا أن تمكين العربية في محيطها، والتحكم في عناصر الصراع بين الفصيحة والأجنبيات من جهة، وبين الفصيحة والعاميات من جهة أخرى، لا يمكن أن يقوم إلا في إطار تصور جديد للوضع اللغوي، تطبعه الدينامية والوظيفية والقالبية (modularity)، وينفي المطلق أو السكونية، علاوة على أنه يستفيد من دروس التاريخ. وسنحاول في الفقرات الموالية تحليل عناصر الصراع بين الفصيحة والعامية من جهة، وبين الفصيحة والأجنبية، من جهة أخرى، علنا ننتهي إلى نتيجة مدعومة بخصوص وضع اللغة العربية في المحيط المغربي، وتصور جديد لتمكينها في هذا المحيط، وللتوازنات التي ينبغي أن تقوم بين اللغات أثناء توظيفها في مختلف القطاعات.

1. في الازدواج ومآله: ثلاثة نماذج

هناك ثلاثة نماذج للازدواج اللغوي (diglossia) ينبغي الوقوف عندها لاستخلاص العبرة مما آل إليه الصراع بين الفصيحات والعاميات:

أ) نموذج اللاتينية واللغات الرومانية في القرون الوسطى

ب) نموذج العبرية تجاه لهجات أخرى ضمنها اليديش

ج) نموذج العربية تجاه اللهجات العامية

فلنا أن نتساءل: لماذا ماتت اللاتينية مع أنها كانت لغة الأدب في القرون الوسطى، ونهضت العربية، بعد عصور من الانحطاط، وأحيى العبرانيون العبرية، بعد أن اقتربت من الموت؟ لقد تم إحياء اللغة العبرية على أساس أن تصبح

لغة الحديث اليومي (أو لغة شفوية)، إضافة إلى كونها لغة أدب وثقافة. وكانت اللغات التي يتكلم بها العبرانيون مختلفة، و لم تكن هناك إلا أقلية يهودية تتكلم بالفلسطينية (العامية المحلية). ولذلك، فإن عددا من اليهود المستقرين في فلسطين لم يجدوا لغة مشتركة للتفاهم والتخاطب غير العبرية. وإحياء اللغة العبرية كان صعبا وطويلا. وكانت العبرية تنافسها لغات أوروبية قوية متعددة، منها الفرنسية والإنجليزية والألمانية. وقد توفقت العبرية في الإحلال محل هذه اللغات في التعليم من الروض إلى الجامعة. وكان من بين اللغات المتكلم بها عند العبرانيين اليديش، وهي عامية مجموعة الأشكناز، التي أصبحت في القرن التاسع عشر لغة ثقافة وحضارة أيضا. إلا أن اليديش قوبل بالرفض عند محاولة استعماله كلغة وطنية.[2]

ووضع العربية يشبه وضع العبرية، من جهة أن العربية عليها أن تواجه مشكل الثنائية (bilingualism) (تجاه الفرنسية أساسا)، وعليها أن تواجه الازدواجية (diglossia) (تجاه العامية). فإحلال اللغة الأجنبية محل العربية يؤدي إلى فقدان الهوية الوطنية أو القومية. ولذلك قامت مقاومة قوية تدافع عن استعمال لغة الثقافة التي تمثل مجد الماضي، في كل قطاعات الحياة. وقد أدت هذه المقاومة إلى إنهاء استعمال اللغة الأجنبية الأوروبية في عدد من القطاعات، أو تقليص دورها في كل من الدول العربية وإسرائيل.

ووضع اللهجات العربية يشبه وضع اليديش، إلى حد، تجاه العبرية. وإن كان الوضع يختلف بعض الشيء، لأن اليديش كانت لغة ثقافة، و لم تكن اللهجات كذلك (وكانت العبرية لغة ثقافة ثانية فقط، إلى جانب اليديش، و لم تكن لغة ثقافة أولى). ثم إن العبرية لم تكن إلا لغة ثقافة وأدب، و لم تصبح لغة حديث يومية. فالعربية تهددها اللهجات (كما وقع للاتينية مع اللهجات

[2] انظر في هذا الصدد بلو (1969) Blau.

الرومانية)، والعبرية كان يهددها البيديش باعتباره لسان المجموعـــة العبريـــة الاشكنازية.

ولكن رفض الشعوب العربية للهجات، واعتبار الدفـــع إلى اســـتعمالها في الأدب مؤامرة استعمارية، وتشبثهم بالفصيحة كلغة وطنية واحدة، ووعيـــهم بمشاكـــل الازدواج اللغـــوي باعتباره يحمل في طياته عناصر قـــد تذهـــب بالأمة إلى التفتت، كل هذا جعل دور اللغة الفصيحة كلغـــة حضـــارة وأدب وفكر تتقوى وتتأكد. ففي مجتمع محافظ على العقيـــدة الاسلامية، ولكنه يريد أن ينفتح على الغرب، اتضح أن لغة الثقافة هي العربية، وأنه يجـــب مقاومـــة اللغات الأجنبية والعاميات. ولئن كانت الأكاديميات العربية قـــد دعـــت إلى تقريب الفصحى من العاميـــة، حتى تصبح لغة الحيـــاة اليوميـــة، فـــإن دور الفصحى في هذه الحياة ظل مع ذلك محدودا، باعتبارها لسانا يلبي حاجـــات ثقافية وعلمية فقط، بينما أصبحت العبرية لغة شفوية معبرة عن الأشياء العملية والوجدانية والفكرية.

وهكذا تعود العبرية، بعد توقفها عن الاستعمال ما يزيد علـــى 17 قرنـــا، لتصبح اللغة الأولى لمجموعة بشرية بأكملها. وهكذا يتم إحياء لغة بطريقـــة لا نكاد نجد لها مثيل. فالعبريون وجدوا أنفسهم في فلسطين لا توحدهم لغـــة، وقد كان عدم وجود لغة توحدهم في صالح تبنيهم للعبريـــة كلغـــة شفويـــة ومكتوبة. وكان بالامكان، لو أنهم ركعوا إلى مقياس *الواقعية*، أن يتبنوا العامية الفلسطينية كلغة للحديث اليومي، لأن عددا منهم كانوا يعرفونها، أو أن يتبنوا البيديش (وهي لغة للمجموعة العبريـــة في أوروبـــا الشرقيـــة). وكـــان بالإمكان أن تجدهم الواقعية أيضا إلى اللغة الأجنبية، خصوصا وأن عددا مـــن الذين التحقوا بإسرائيل كانوا لا يحسنون إلا اللغة الأجنبيـــة. إذن لم تجدهـــم الواقعية إلى لغة حديث يومي، ولا إلى لغة حضارة أوروبية، بـــل إن العبريـــة توحد فيها الدوران بموجب اختيار سياسي.

ولم يقع هذا التوحد بالنسبة للمحيط العربي، الـــذي مـــازال ينخـــره الازدواج لأسباب متعددة، منها أن اللغة الفصيحة لم تكن تختلف كثيرا عـــن عدد من اللهجات في بداية الأمر، ولم تبتعد عنها اللهجات كثيرا حتى يومنـــا هذا، خلافا لما هو عليه الأمر بالنسبة للعبرية والييديش، أو اللاتينية واللهجات الرومانيـــة. ولو حصل هذا لأدى ذلك إلى اتخاذ العرب لقـــرار سياســـي في صالح تعميم العربية الفصيحة.

لقد كان إحياء العبرية دائما موضوع تشكيك. وأكتفي هنا بالاستشهاد بما كتبه في هذا الموضوع نولدكه Noldeke، أحد أكبرخبراء الســـامية في القـــرن التاسع عشر: "إن حلم بعض الصهاينة بأن تكون العبرية – أو مـــا ســـيصبح عبرية على الأصح – لغة شعبية حية في فلسطين، يظل بعيدا عن التحقيـــق، مثل ما يظل حلمهم بإقامة إمبراطورية يهودية في الأرض المقدسة".[3] فهذا كلام خبير كبير، في القرن التاسع عشر، يشكك في إمكان قيام الدولة الصهيونيـــة، وكذلك في إمكان قيام لغة موحدة عبرية.

ولأن هذا التنبؤ لم يتأكـــد، فإن المشكل، أي مشكـــل مـــآل الازدواج، ينبغي اعتباره مشكلا نفسيا وقوميا. فاللاتينية فقدت العلاقة النفسية الوثيقـــة بين اللغة والدين، وفقدت طابعها الوطني، إذ لم تعد لغة لأي وطـــن، بينمـــا العربية لها علاقة روحية بالدين، وعلاقة وطيدة بالوطنية والقومية، فهي رمـــز الوطن، وهي رمز المجد. ثم إن وضع اللغة العربية الفصيحة تجاه اللهجات وضع مريح نسبيـــا، لأن هناك تكاملا بين الوظائف "العاليـــة" الـــتي تقـــوم بهـــا الفصيحة، والوظائف " العملية" التي تقوم بها العامية، علاوة علـــى وجـــود تقارب واضح بين الرصيدين الفصيح والعامي. ومع ذلك، فإن فتيل الصـــراع

[3] هذا الاستشهاد منقول من Encyclopedia Britannica عن بلو (1969). وأصل النص هو التالي:

« The dream of some Zionists that Hebrew - a would-be Hebrew, that is to say- will again become a living popular language in Palestine has still less prospect of realisation than their vision of a restored Jewish empire in the Holy land » (p.3)

قد يشعل بين اللسانين من حين لآخر. وعلاوة على هذا، فإن الفصيحة صمدت أمام الأجنبية، بل تحسن وضعها المجتمعي.

ولعل في اختلاف مصير لغات الآداب والثقافة (العالية) في هذه النماذج الثلاثة للازدواج عبرة لمن يعتبر. فمصير الفصيحة لا يمكن أن يكون هو مصير اللاتينية، ولو احتد الصراع بينها وبين العامية لحسم الأمر لصالحها، لكونها لغة الدين، والمكون الأساس للهوية الوطنية، بخلاف اللاتينية التي لم تعد مرتبطة عضويا بالمسيحية، و لم تعد لسانا لوطن. وينبغي التشديد مجددا على أن العبرانيين وحدوا لغة الحديث اليومي ولغة العلم والثقافة، فجعلوا العبرية مكتوبة ومنطوقة، و لم تجذبهم الواقعية لاختيار لغة حديث يومي متداولة، ولا لاختيار لغة أوروبية قوية ضامنة للتقدم العلمي.

2. نحو خطط تطويع وظيفية وتطورية وقالبية

أدى انشغال المجامع اللغوية والمؤسسات العربية التي يوكل إليها أمر تطويع الأوضاع اللغوية وتقويمها إلى اقتراح خطط بسيطة تقوم أساسا على إحلال اللغة العربية محل اللغة الأجنبية، مقاومة للثنائية، ونبذ اللهجات، لتجاوز مشكل الازدواج. وهذا التعريب الشامل أو المطلق باعتباره خُطة للتدخل والتطويع لا يقوم على تمثل واقعي وعلمي للوضع الذي ينبغي معالجته، لأن نبذ التعدد اللغوي أو نبذ الازدواج لا يؤدي ضرورة إلى تحسين وضع الفصيحة وإنعاشها.[4] ومن هنا يصبح مشكل ما يدعى بالتعريب مشكلا لغويا وتقنيا معقدا لا يمكن معالجته إلا بالنظر إلى عدد من الوسائط، من ضمنها المضمون الممكن الذي يمكن أن يعطى للتعريب، ومن ضمنها كذلك قياس الوسائط التي تتحكم في وظيفته في فضاء (أو مجال) معين، وفي زمن معين، أو في تشكيلة لتوازنات لغوية معينة. وفي هذه

[4] انظر الاستدلال المقدم في الفاسي (1993).

الفقرة، سنعرض أولا لعدد من المضامين التي يمكن أن تقرن بلفظ التعريب، ثم نناقش عناصر تصور تطوري ووظيفي لوضع لغوي متعدد، يكون في صالح تمكين اللغة العربية الفصيحة.

2.1. في التعريب

تتعدد مضامين هذه العبارة وتختلف من مؤلف إلى آخر، إلى درجة قد تجعل هذا المفهوم يستغلق على عدد من الناس.

فالتعريب1 عند العرب اقتراض، وعمل على إصهار المقترض ليصبح من صميم النظام العربي.

والتعريب2 في معناه اللساني الاجتماعي (sociolinguistic) قد يعني إحلال العربية محل لغة أخرى غيرعربية (وهذا يدخل في إطار التخطيط اللغوي وخطط التدخل).

وقد يعني التعريب3 أيضا تهيئة اللغة وتنميتها وتطويعها لتصير بنظامها قادرة على أن تقوم بالوظائف التعبيرية التي تقوم بها لغات أخرى.

وقد يعني التعريب4 كذلك نقل نصوص أو مصطلحات من لغة غير عربية إلى اللغة العربية، وهذا ضرب من الترجمة. ويدخل في هذا الباب أيضا تعريب الأدوات التكنولوجية كالبرامج الحاسوبية، مثلا، لتصير قابلة لاستقبال العربية، أو لتحليلها.

ويدخل في التعريب5 إدخال اللغة العربية في قطاع تهيمن فيه اللغة الأجنبية دون أن يكون للعربية حظ في هذا المحيط. فجعل اللغة العربية حاضرة

إلى جانب لغات أخرى لا شك أنه يدخل ضمن تحسين مكانتها وتطوير نشرها.

وهذه التعاريف أو المفاهيم يمكن تلخيصها في مفهومين:
أ) *تطويع وضع اللغة الداخلي*، أي خصائص نظامها والوسائل التي توفرها لاستقبال اللفظ الاجنبي (ليفضي ذلك إلى ما يدعى باللفظ المعرب) أو استقبال المعنى الأجنبي (حين يتعلق الأمر بالترجمة) أو استقبال التقنية الأجنبية (كالحوسبة، أو القراءة البصرية (lecture optique) أو وسائل الاتصال المتعدد (multimedia) الخ).
ب) *إعادة النظر في وضع اللغة المحيطي* أو الخارجي. ويتعلق الأمر بموقعتها داخل الادارة أو التعليم أو الاقتصاد، إما بإحلالها محل لغة أخرى (ضمن تعريب شامل)، أو إحلالها إلى جانب اللغات الأخرى (تعريب جزئي).

وقد ركزت عدد من الاقتراحات أو الدراسات حول التعريب على الجانب الثاني، معتبرة أن تمكين اللغة العربية لا يتأتى إلا باتخاذ القرار السياسي الذي يجعل من اللغة العربية اللغة الوحيدة أو الأساسية في المحيط التعليمي والإعلامي والاقتصادي، الخ، وأن هذا التمكن في المحيط سينتج عنه ضرورة تطور وتنمية اللغة داخليا.

وإذا كان من المعقول أن نربط بين الوضعين الخارجي والداخلي للغة، فإننا مع ذلك نستطيع أن نذهب مذهبا مغايرا لما درجت عليه كثير من الاقتراحات. فالعناية والجهود ينبغي أن ينصبا أولا على تنمية اللغة داخليا، وعلى تهييء الأدوات التي تجعلها مؤهلة لأن تتمكن في وضعها المحيطي. بل إن عدم تنميتها داخليا قد يساعد على اضطراب وضعها في المحيط، وتقهقرها عوض تمكنها.

والشيء الثاني الذي نريد إبرازه هو أن اللغة العربية يمكن أن تنمو وتتمكن في محيط متعدد، إذا توفرت الشروط المواتية. ويمكن أن تتقهقر في نفس المحيط كذلك، في ظروف مغايرة. فالتعدد لا ينفي التمكن، خلافا لما يعتقد.[5]

ثم إن التعريب ليس من الضروري أن يكون شاملا لجميع القطاعات في المحيط، بل قد يكون صالحا في قطاع معين حسب الأهداف المتوخاة، وليس صالحا في قطاع آخر، أو في زمن معين، الخ. والتعريب لا يعني ضرورة أن توظف اللغة العربية وحدها دون غيرها في قطاع معين، بل إن إدخال اللغة العربية إلى جانب الأجنبية في بعض القطاعات قد يكون إسهاما كافيا في تمكينها وإنعاشها.

ولا يخفى على أحد أن التعريب$_6$ اللغوي الذي يدخل فيه تعريب المصطلح، أو تعريب النصوص المرجعية، أو غير ذلك، لا يؤدي حتما إلى التعريب$_7$ الثقافي أو الفكري أو العلمي، إذا كانت المرجعيات الثقافية أو الفكرية أو العلمية لا تجد لها مضمونا فعليا أو سياقا فكريا وإحاليا إلا في الفضاء الأجنبي. وقد يكون هذا الانفصام بين اللغة والفكر هو الوضع السائد في الحضارات التي تستهلك أكثر مما تنتج. إلا أن وضع أمة تستهلك بلغتها أحسن من وضع أمة تستهلك بلغة أخرى. ولذلك، فإن التعريب اللغوي أو التعريب بالمعنى الخامس يمثل خطوة ضرورية نحو تمكين نسبي للغة.

2.2. *التعريب الوظيفي والتعدد الوظيفي*

هناك عدة عوامل تتحكم في موقف المتعلم من العربية أو موقف صاحب القرار من هذه اللغة. وهذه العوامل إما داخلية تتعلق بنظام العربية ووسائل نشرها، وإما خارجية، تتعلق بإمكاناتها السياسية والوظيفية داخل المحيط.

[5] لمزيد من التفصيل في الموضوع، انظر الفاسي (1993أ).

وإذا كانت عدد من الاقتراحات تدعو إلى تعريب شامل للمحيط لتحسين وضع اللغة العربية الخارجي والداخلي، فإن خطة أكثر رصانة ينبغي أن تراعي إمكان تحقق هذا التعريب في ظروف مواتية، لا تؤدي إلى اتخاذ مواقف سلبية من العربية.

ومراعاة لهذه الاعتبارات، ينبغي الأخذ مرحليا بخطة تدخل وظيفية، يقع فيها استعمال العربية في القطاع الذي تتوفر فيه شروط نجاح الخطة، وبناء على ما يتوفر من أدوات لغوية فعلية للقيام بالتعريب. وموازاة مع هذا، يمكن قيام ما يمكن أن ندعوه بالتعدد اللغوي الوظيفي، على أساس أن تكون العربية حاضرة في هذا التعدد. وهذه الخطة، وإن كانت توفيقية، توفق بين موقف الدعاة للتعريب الشامل، وموقف الدعاة لاستعمال اللغات الأجنبية، فهي مع ذلك خطة أساسها تمكين اللغة العربية في محيطها، وجعلها حاضرة في جميع القطاعات، سواء انفردت بهذا الحضور، أو كانت فيه متصلة بلغات أخرى تبدو أكثر وظيفية، في قطاع معين.

والعربية بحاجة ملحة إلى ضبط قواعدها وأساليبها ومفرداتها. وهي بحاجة إلى تطوير الوسائل التقنية والتكنولوجية التي ستساعد في نشرها. وهي بحاجة إلى أن يعاد النظر في وضعها في المحيط، حتى تكون حاضرة في جميع قطاعاته، سواء انفردت بهذا الحضور أم لم تنفرد. ولا شك أن وجود لغات أجنبية في قطاعات ثنائية أو متعددة اللغات، كالتعليم مثلا، يجعل اللغة العربية في موقف ضعف في كثير من الأحيان، تجاه اللغة الأجنبية التي ينظر إليها على أساس أنها لغة التقدم والرقي الثقافي والعلمي، مما يؤدي إلى نتائج سلبية بالنسبة للمتعلم المعرب، تعبيرية وإدراكية ونفسية. ولا شك أن المعرب لا يحظى بالامتيازات التشغيلية، أو المكانة المجتمعية التي يحظى بها الثنائي اللغة. ولئن كان التخلي عن الازدواج (مع اللهجة) أو التخلي عن اللغات الأجنبية في التعليم والاقتصاد لا يبدو واقعيا، فإن تمكين العربية وتحسين

مكانــة المغرب يصبح ممكنا عندمـــا تصبــح العربيــة حــاضرة في كــل القطاعــات، في محيطها الطبيعي.

3. معجم العربية الذهني

في هذه الفقرة، نتعرض بالتحليل إلى بعض عناصر النمو اللغــوي الــذي يتيحه امتلاك القدرة على تأويل الكلمات العربية أو إنتاجها. وننطلــق مــن ملاحظة أساسية هي أن الانسان له قدرة هائلة على تذكر آلاف الكلمـــات. فكيف تخزن هذه الكلمات في الذهن؟ وكيف يقع استرجاع (retrieval) هــذه الكلمات من الخزان الذاكري عندما نحتاج إليها؟

إن التخزين (storage) لا يتم كيفمــا اتفــق، أولا لأن عــدد الكلمــات كبيرجدا، وثانيا لأن البحث عن الكلمات واسترجاعها يتم بسرعة فائقة قد لا تتعدى نصــف ثانيــة. إن الذاكــرة البشريــة مرنــة وقابلــة للتوســيع (flexible / extendable) شريطة أن تكون المعلومات مبنية. فالأشياء غير المنظمة يصعب تذكرها، بيد أن الكميات الهائلة مــن العينــات يمكــن تذكرهــا واستعمالها إذا كانت منظمة. فالمتكلمون يعرفــون كثــيرا مــن الكلمــات ويسترجعونها بسرعة، وهناك بعض التقديرات لعدد الكلمات الــتي يعرفــها المتكلم البالغ، ولكن هذه التقديرات فيها اختلاف. فهناك من ذهــب إلى أن البالغ المثقف يعرف 150000 كلمة، وهناك من عدها 450000 كلمة، وهنــاك من ذهب إلى أن الحد الأدنى الذي يعرفه البالغ هو 50000 كلمــة.[6] وحــتى لوكان الأمر يتعلق بهذا الرقم الأخير، فإن الطاقة الذاكرية لمتكلم اللغة طاقــة ضخمــة. وهي طاقة لا يشترك فيها مع غيره من الحيوان. مثــلا، إذا قارنــا حالة الانسان بنتائج التجارب التي أجريت على القردة، فإن القرد يمكــن أن يتعلم 200 كلمة (قد تصل بعد عدة سنوات من التعلــم إلى 400)، بينمــا

---

[6] بخصوص تضارب هذه التقديرات، انظر ايتشسن (1987) Aitchison.

يستطيع الطفل في ظرف وجيز جدا أن يكتسب آلاف الكلمات.[7] فـــالمعجم الذهني إذن لا بد أنه قائم على نظام، والكلمة تتم معاينتها في بضــــع لحظـــة (خمس الثانية أو أقل). ويقع تحديد ما ينتمي إلى مجموعـــة اللاكلمـــات non-words). فهناك إذن قدرة خاصة على البحث عن الكلمات وإصـــدار قـــرار معجمي (lexical decision task) في نصف ثانية. إن المعجم الذهـــني المنظـــم تنظيما محكما هو الذي يترجم القدرة علـــى التخزيـــن الكثيـــف، وعلـــى الاسترجاع السريع.

فالأعمـــال حول المعجم العربي ينبغي أن تتجه إلى نقطتـــين أساســـيتين: الأولى هي أن المتكلم المؤول للعربية يجب أن يكون قادرا علـــى بنـــاء آلـــة معجمية ذهنية يستطيع بواسطتها أن يقوم بالتخزين الكثيف المنظـــم للمـــواد المعجمية. وبصفته مؤولا، يستطيع أن يصدر القرارات والأحكام المعجميـــة التي تمكنه من أن يحكم على كلمة بأنها تنتمي إلى لغته (أي أنها *كلمة*)، أو لا تنتمي (أي أنها *لا كلمة*). بمعنى آخر، إنه يسمع كلمات ليست كالكلمات التي سبق له أن سمعها، سواء في صوتهـــا، أو في تركيبـــها، أو في دلالتـــها، أو في مقامها. ومع ذلك، يعرف أنها كلمـــات. وبنفس الكيفيـــة، فإنـــه يســـمع متواليات صوتية، ويعرف أنها ليست كلمات. فهذه الأحكام وهـــذا النظـــام الذي يمكنه من التخزين ومن الاسترجاع هو ما نسميه *بالمعجم الذهني* (mental lexicon). ويجب أن تتجه الأبحاث كذلك إلى ضبط وقت الإنتاج أو ســـرعة الاسترجـــاع. فإذا قارنا هذه السرعة بسرعة الآلة، فإننا قد نجد أن الســـرعة هنا تفوق بكثير سرعة الآلة المصنوعة. فحتى يتم الاسترجاع بطريقة ســـريعة، يجب أن يكون المعجم الذهني منظما.

وهناك فروق بين المعجم الذهني والقاموس (الكتاب أو الصناعـــة) الـــذي درج الناس على تصوره على أنه عبارة عن لائحـــة طويلة مـــن المفـــردات

---

[7] نفس المصدر.

المرتبة ألفبائيا أو خطيا. فلو كان معجمنا الذهني مرتبا بطريقة ألفبائية لصعب استرجاع المعلومات، ولتطلب منا البحث عن كلمة ما يتطلبه البحث عنها في قاموس صناعي. فالمعلومات التي تأتي عادة في القواميس تكون معلومات ملخصة ومختصرة جدا. مثلا، تكون المداخل بحسب الجذر، وهناك دخلات فرعية بالنسبة للمشتقات، وقد نجد أحيانا المشتقات، وأحيانا لا نجدها باعتبارها قياسية. فلو بحثنا، مثلا، عن اسم مفعول مثل مكتوب في المعجم، فقد نجده أو لا نجده. وقد نبحث، مثلا، عن اسم مفعول آخر مثل *مقلق*، فلا نجده. ونتساءل هل *مقلق* ينتمي إلى معجم اللغة العربية أم لا ينتمي إليه؟ هل توجد كلمة *مقلق* أو *إقلاق* مصدر أقلقته إقلاقا، كما في قولنا *أزعجني هذا الإقلاق*؟ القاموس لا يجيب عن هذه الأسئلة، بينما نجد المتكلم يسمع متوالية، ويتعرف عليها بسرعة، ويقارنها بوحدة مخزنة في ذاكرته، ويقول: هذه كلمة عربية ومعناها كذا وكذا، أو ليست كلمة عربية.

وهناك الأخطاء التي يرتكبها الناس في استعمال هذه الكلمات. وهذه الأخطاء يمكن أن تفيدنا في النظر إلى المعجم الذهني وبنيته الداخلية. ومن جملة هذه الأخطاء أخطاء في الانتقاء (selection errors). فلو كان الترتيب في المعجم الذهني ألفبائيا لكان الخطأ يؤدي إلى استعمال الكلمة الموالية ألفبائيا. فالأخطاء تشمل عادة كلمات متقاربة في المعنى، وذلك باستعمال كلمة مقابل أخرى مقاربة لها في المعنى. فالمعجم الذهني أكثر بنينة وأكثر تعقيدا. والعربي يخطئ في الحركات، أو يخطئ في استعمال الكلمات المتقاربة، أو في النطق أو في التركيب، الخ.

وأما القاموس الصناعي، فله عدد محدود من الكلمات يمكن عدها وحصرها. ولذلك، فإن القواميس تكون دائما متجاوزة بمجرد ما نقوم بوضعها، ويقع التغيير دائما. والكلمات أكثر عددا مما يمكن حصره، بل إن الكلمات التي نكتب أو ننتج ليست إلا جزءا صغيرا من الكلمات. فكل كلمة في القاموس بدء، والكلمات ليست نهاية. نسمع كلمات، ونفكر بكلمات،

والقاموس الذهني ليس له محتوى محدود، بل نضيف كلمات جديدة، ونغير نطقها ومعانيها. إنها حركة دائمة وحياة لا يقوى على إدراكها إلا من يحيا ويتحرك. إننا "نلغو" بما لم يسبق لأحد أن لغا به، نلغو فنجدد في الصوت والتركيب والدلالة والمقام اللغوي وغير ذلك.

إن دخلات المعجم الذهني تحوي كما هائلا من المعلومات، ولا يمكن أن تحصر في عينات محدودة، حتى ولو ارتفع عددها. ولذلك، فإن المعاجم المتوفرة لا تصف الوحدات المعجمية إلا بصفة جزئية غير تامة. ففي القاموس، تعالج الكلمات مفصولة عن الكلمات الأخرى، بل تعالج بمعلومات مقلصة ومختصرة. خذ لك مثلا هذه التراكيب:

(1) بقرة حلوب
(2) *بقرة لبون
(3) ألبنت البقرة
(4) حلبت البقرة
(5) *لبنت البقرة

فهذه الأمثلة توحي بأنه يجب أن نحصر الكلمات في اللغة العربية. فهناك مدخل للحليب، وهناك مدخل للبن. ومعنى الحليب شيء، ومعنى اللبن شيء آخر. فالمعجم، خلافا لما يتصوره الناس، له ضوابطه وقواعده. وهو كبس (compression) وإصهار لعدد من العناصر التي يمكن أن تقوم بطريقة مفصلة. وهذا الاصهار هو من مميزات اللغة العربية.[8] فالفروق بين الكلمات في المعجم الذهني والكلمات في القاموس شاسعة. ولا يمكن أن نستنتج شيئا عن معجمنا الذهني بالنظر إلى الطريقة التي تعالج بها الكلمات في القواميس. ونحتاج إلى سبل أخرى لتكوين صورة أكثر كفاية لتخزين الكلمات عند الإنسان.
وهناك بعض الاضطرابات اللغوية التي تمكننا من معرفة بنية المعجم الذهني، مثلا الشخص الذي يصاب بالقرائية (aphasia)، أو المريض الذي يتذكر الأسماء،

[8] لمزيد من التفصيل، انظر الفاسي (1994 و1995).

ولا يتذكر الأفعال. وهناك عنصر أساسي هو التوليد. والتوليد هنـــا له معان متعددة، من ضمنها معناه في النظرية التوليدية. والتوليد يرد بمعنى تقديم عناصر وإدخالها في قاعدة، والخروج برموز جديدة لاستعمال التقعيد الأساسي لبناء هذا المعجم. فالتوليـــد أساس نظام المعجم الذهني، والطفل يتعلم في البدايـــة كيف يولد أشياء موجودة وأشياء غير موجودة. والتجارب يمكن أن تؤدي إلى الاستغناء عن المعجم. إلا أنها لا يمكن أن تصدق بصفة مطلقـــة، لأن نتـــائج خاطئة يمكن أن تستنتج من تجارب مصممة بطريقة غير طبيعية أو غير مقنعة.

4. النمو في الازدواج

يبدأ الازدواج العربي مبكرا عند الطفل المغربي، ابتداءا من سنوات الروض، أوحتى قبل ذلك، في الأوساط العربية المغربية المثقفة. ويبدأ الطفل في تنميـــة مجالاتـــه التصورية في موازاة مع التنمية لطاقاته التعبيرية. وإذا كـــان النمـــو اللغوي يساعد في تنمية المعارف، فمن الخطأ أن نخلط الأول بالثاني. ويمكـــن مقاربة البعدين اللغوي والمعرفي بالنظر إلى الخصائص المعجمية العامة للعاميـــة والفصيحة ومعارضتها. وقبل أن أدقق في هذه الخصائص، أريد أن أذكر هنـــا ببعض المشاكـــل التي تكرر الكلام عنها باعتبارها عوائق متصلة باللغة العربية، وعوائق للنمو اللغوي والمعرفي.

فمن المشاكل التي وقع تضخيم حجمها بالنسبة للغـــة العربيـــة مشكـــل الشكل، بما فيه الحركـــات الداخلية للكلمات ومشكل الاعراب، علما بأنـــه قد يقـــع كثير من التردد في هذه الحركات. ولا شك أن ما يتعلمه الطفل أولا هو إدخال الحركات في أماكن لا توجد فيها حركات، وهذا يقع طبقا لمبـــدأ بسيط هو التحريك مقابل التسكين (أو عدم وجود الحركة).

فبالنسبة لحركات الاعراب، هناك حركات تسقط في الوقـــف، وهـــذه الحركات لا يحتاج الطفل إلى ضبطها في مرحلة أولى، وإنما يحتـــاج فقـــط إلى

التحريك. وضبط الحركات الخارجية أو الإعرابية في مرحلة لاحقة يقتضي معرفة الأدوار الدلالية، وكيف تقترن بالوظائف النحوية. وضبط الحركات الداخلية يتطلب معرفة بخصائص الجهة والبناء. فنمو هذا النظام الحركي عند متعلم اللغة الفصيحة مرتبط بنموه التصوري والمعرفي. ووضع الحركات في غير محلها ليس مشكلا في وجه هذا النمو. بل إن النمو الفعلي لا يقتضي فقط إسناد وظائف للحركات، بل إعادة النظر في نظام اللواصق كلها، سواء كانت حركات أو سواكن.

المشكل الثاني هو مشكل اضطراب الحقول الدلالية العربية. وهذا المشكل مشكل زائف، لأن الحقول الدلالية العربية ليست مضطربة، وإنما يأتي الاضطراب من الجاهل للمادة العربية وضوابطها.

الملاحظة الثالثة هي أن هناك تقاربا بين العامية والفصيحة في كثير من الأشياء، في النحو والصرف، كنظام التطابق والرتبة والاستفهام، والبناء على الجذور والصيغ، الخ.

وإذا عدنا إلى مشكل النمو في الازدواج، نجد أن اللغة الفصيحة هي التي تمكن من النمو الثقافي والحضاري والديني، باعتبار هذه العناصر المكون الأساسي للهوية المغربية، ولا تقوم الهوية إلا بها. وهذا الدافع الهوي هو الذي يجعل المغربي مندفعا نحو تعلم اللغة الفصحى، ورفض اللغة الأجنبية في المعاملات اليومية، ورفض منطق الاختزال في التعدد اللغوي. ولا شك أن هذا الموقف من اللغة الفصيحة يساعد في اكتسابها ويسهل مأمورية المعلم، شريطة أن تتوفر الوسائل.

ولقياس النمو اللغوي، الذي تتيحه الفصحى، ينبغي أن ننظر إلى عدة جهات، ونحصر الحديث هنا في الحديث عن المعجم. إذا نظرنا إلى الكلمة العربية، نجدها كلمة تتميز بما سأسميه بطاقتها الإصهارية الكثيفة، وهذا

الإصهار له مستويان: مستوى الإصهار الدلالي/ التصوري، ومستوى الإصهار النحوي/ الوظيفي. خذ لك مثلا التراكيب التالية:

(6) أورق الشجر

(7) أنبت الحقل

(8) ألبنت البقرة

(9) حلبت البقرة

(10) أربع الرجل

إذا نظرنا إلى هذه الأمثلة فقط (وهناك أمثلة كثيرة من هذا الصنف) ماذا نجد؟ نجد أن العربية لها خصائص كبسية (compression) إصهارية تجعل الكلمة عبارة عن وحدة ذاكرية نستطيع بواسطتها أن نقتصد في البناء والاحتساب، ونستطيع بواسطتها أن نعبر في عجالة عما يعبر عنه الآخرون في وقت طويل. هذه الطاقة الإصهارية نجدها أيضا في العامية (سبل الزرع، خرف...)، ولكننا لا نجدها بنفس النطاق الانتاجي الذي توجد عليه في العربية الفصيحة، مما قد يحدث اضطرابا في الازدواج. ولأن الإصهار أكثر انتاجية في الفصيحة، فإن تعلم الفصيحة أولا قد لا يعوق تعلم الدارجة، والعكس غير صحيح. والمهم أن كلمات الفصيحة لها خصائص كبسية/ إصهارية هائلة تجعل التعبير سريعا ووجيزا، وهذه مزية من مزايا هذه اللغة، مقارنة بغيرها. والشيء الثاني هو الإصهار الوظيفي. فإذا قلت مثلا *جاء* أو *جلس*، فإن الكلمة الواحدة تغني عن جملة. وبصفة عامة، فإن المعاني الكثيرة يعبر عنها في هذه اللغة بعبارة واحدة، أو بكلمة واحدة، وهذا يجعلها لغة ذات مزايا تخزينية هائلة، ويجعلها تختلف جذريا عن منافساتها الأجنبية.

5. خاتمة

إن العربية بحاجة إلى أبحاث في خصائص معجمها الذهني، ومعارضة خصائص هذا المعجم بخصائص المعجم الأجنبي أو المعجم العامي. وهي بحاجة إلى دراسات نفسية تحتسب سرعة إيجاد الكلمات أو استرجاعها عند المتعلم العربي مقارنة مع متكلم الأجنبية أو متكلم العامية. وبخصوص وضع العربية في محيطها، ينبغي ألا نهمل دروس التاريخ، فمآل العربية لا يمكن أن يكون مآل اللاتينية، لأن المغربي قلبه عربي، ولغة دينه عربية، ولسانه عربي.